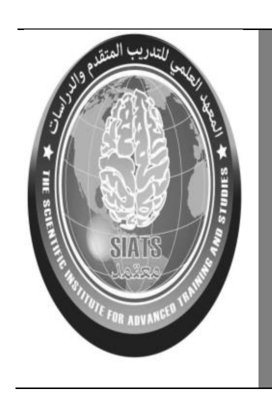


SIATS Journals

Journal of Islamic Studies and Thought for Specialized Researches

(JISTSR)

Journal home page: http://www.siats.co.uk



مجلة الدراسات الإسلامية والفكر للبحوث التخصصية

العدد 2، المجلد 1، تموز، يوليو 2015م.

e-ISSN: 2289-9065

SCIENCE IN LIGHT OF THE MODERN CREATION OF THE FOUR ELEMENTS

العلوم في ضوء حديث خلق العناصر الأربعة

أ.د. محمد أبو الليث الخيرآبادي

الجامعة الإسلامية العالمية/ماليزيا

mabullais@hotmail.com

1436هـ – 2015م



ARTICLE INFO

Article history:
Received 15/5/2015
Received in revised form 20/5/2015
Accepted 7/7/2015
Available online 15/7/2015

Keywords:
Insert keywords for your paper

الملخص

يهدف هذا البحث إلى شرح حديث "خلق العناصر الأربعة: التراب، والنار، والماء، والهواء"، وكيف أن الحديث رتَّبها ترتيبا رائعا، حيث إنه ذكر أولا كل كثيف، ثم كل لطيف، ثم جعل كلَّ مذكورٍ مؤخرًا أشد وأقوى من المذكور مقدَّمًا، وإلى أن معيار الشدة والقوة هو اللطافة، وترتيبه الطبيعي أن الألطفَ من التراب الحديدُ، ومن الحديدِ النارُ، ومن النارِ الماءُ، ومن الماءِ الهواءُ، ومن الهواءِ الإنسانُ، ومن عامة الناسِ الإنسانُ تاركُ الدنيا، ومن عامة التاركين التاركُ المحضُ والزاهدُ غيرُ المرائي الذي قلبه أطهر من شواغل الدنيا، وأرفع من حب الماديات، وأنفر من الكثافات المادية، وهو محور اللطافات الروحانية، كأن لا يكون حامل اللطافة الكاملة إلا الإنسان الروحاني الرباني، الذي لا ينهمك في خدمة البدن، بل ينشغل بتكميل الروح، وتصبح الأعمال الروحانية شعارا له، بدلا من التصرفات المادية. واستخدم فيه المنهج التحليلي والاستنتاجي.



المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد! فإن الحديث عن العلوم في ضوء حديث خلق العناصر الأربعة يتطلب ممن يكتب فيه الإلمام بالعناصر الأربعة ماهيةً، وخاصية، وأثرا، وقلَّ من كتب فيها في ضوء الأحاديث، غير **شيخنا الكبير العلامة حكيم الإسلام سماحة المقرئ مولانا محمد طيب** –طيب الله ثراه– المدير الأسبق للجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند في الهند، فإن له محاضرة ألقاها أمام أساتذة وطلبة جامعة علي كراه الإسلامية في الهند، في يوم الأحد 8/ جمادى الثانية 1357ه الموافق 17/ أغسطس 1938م، بعنوان "سائنس اور اسلام"[1]، شرح فيها حديث خلق العناصر الأربعة شرحا مفصلا، نتقدم لكم بمختصر منها بألفاظه مع تصرف منا تصرفا جزئيا.

حديث خلق العناصر الأربعة

عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال فقال: فعاد بها عليها، فاستقرت، فعجبت الملائكة من شدة الجبال، قالوا: يا رب! هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم، الحديد. قالوا: يا رب! فهل من خلقك أشد من الحديد؟ قال: نعم، النار. فقالوا: يا رب! فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم، الماء. قالوا: يا رب! فهل من خلقك شيء أشد من الماء؟ قال: نعم، الريح. قالوا: يا رب! فهل من خلقك أشد من الريح؟ قال: نعم، ابن آدم، تصدَّق بصدقةٍ بيمينه يخفيها من شماله»[2].

---

[1] ترجمها إلى اللغة العربية نظيف أحمد القاسمي الأزهري بعنوان "العلوم والإسلام"، تولى نشرها مجمع حجة الإسلام، الجامعة الإسلامية دار العلوم وقف، ديوبند، الهند.

[2] أخرجه أحمد في **مسنده**، ج3، ص124، رقم12275 (ومن طريقه ابن الجوزي في **المنتظم في التاريخ**، ج1، ص7)؛ وعبد بن حميد في **مسنده**، ص365، رقم1215؛ والترمذي في **سننه**، –واللفظ له–، ج5، ص454، رقم3369 عن شيخه محمد بن بشار (وأبو الشيخ في **العظمة**، ج4، ص1379، رقم8963 من الطريق نفسه)؛ وأبو يعلى في **مسنده**، ج7، ص286، رقم4310 عن شيخه أبي بكر بن أبي شيبة؛ وابن أبي حاتم في **تفسيره**، ج8، ص489، رقم12955– ج11، ص177، رقم17270 من طريق عمرو بن محمد الناقد؛ وابن منده في **التوحيد**، ص82، رقم63 وأبو القاسم الأصبهاني في **الحجة في بيان المحجة**، ج2، ص451، رقم434 من طريق سعيد بن مسعود المروزي؛ والبيهقي في **شعب الإيمان**، ج3، ص244، رقم3441 والمزي في **تهذيب الكمال**، ج11، ص443 من طريق محمد بن أبي بكر [بن علي بن عطاء بن مقدم]؛ والخطيب في **المتفق والمفترق**، ج1، ص89، رقم625 من طريق يحيى بن أبي طالب؛ ثمانيتهم قالوا: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا العوام بن حوشب، عن سليمان بن أبي سليمان، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ. وقال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه".



وفي رواية عن أنس ﷺ مرفوعا: «... هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم، الحديد يكسر به الجبال. قالت: يا رب! هل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال: نعم، النار يلين بها الحديد ...»[3].

موضوع العلوم هو العناصر الأربعة

توصل الشيخ إلى أن موضوع "العلوم" هو عمل المواليد الثلاثة التي هي: الجمادات والنباتات والحيوانات. ثم لما كانت كلُّ هذه المواليد الثلاثة مركبةً من العناصر الأربعة: 1) الطين، 2) والنار، 3) والماء، 4) والهواء، لذلك أصبح موضوعُ "العلوم" هذه العناصرَ الأربعة، ومن ثَمَّ أصبحت دائرةُ عملِ "العلوم" فهمَ خواص تلك العناصر وآثارها عملاً، وإيجادُ الأشياء الجديدة في ضوء تجربات تحليلاتها وتركيباتها عبر الطرق الكيماوية.

المطلب الأول: التفاوت بين العناصر قوة وضعفا ومعياره:

إذا تأملنا في هذه العناصر الأربعة فوجدناها متفاوتة قوة وضعفا، وهذا التفاوت ليس عشوائيا، بل هو مبني على معيار، وهو أن ما ازداد منها لطافةً ازداد قوةً، ومن ثَمَّ ازداد غلبة وتسلطا وقدرة بقدر القوة، وما ازداد منها كثافةً ازداد ضعفاً، ومن ثم ازداد عجزا ومغلوبية وذلة ومهانة بقدر الضعف.

وسرُّ ذلك هو أن اللطافة هي صفة الكمال، ومخزن كلِّ كمالٍ وجوديٍّ هو ذات الله واجب الوجود، لذلك هو منبع اللطافات كلها أيضاً، ومن ثم هو منبع القوة والطاقة والغلبة، ومن الثابت أن قبول الأثر لا يكون بدون مناسبة بين المؤثِّر والمتأثر، إذاً كل شيء لطيف له مناسبة مع الله تبارك وتعالى بقدر لطافته، ويكون قويا وغالبا وقادرا بقدر قربه منه ومناسبته معه. وأما الكثافات والأشياء المكثفة فهي غريبة وبعيدة عنه تعالى غاية البعد؛ إذ لا وجود للكثافة هناك، فلذا كلُّ ما يبتعد بكثافته عن ذات اللطيف الخبير، يكون مغلوبا وضعيفا وذليلا على قدره، وتنعدم فيه القوة والاستيلاء والغلبة.

---

[3] أخرجه أسلم بن سهل بحشل الواسطي في **تاريخ واسط**، ص63؛ وأبو الشيخ في **العظمة**، -واللفظ له- ج4، ص1353، رقم27676 كلاهما من طريق هشيم، عن العوام بن حوشب، عن العوام عن سليمان بن أبي سليمان به إلا أنها مختصرة عند أسلم. وحكمها مثل حكم الرواية السابقة؛ لأن في سندها أيضا سليمان بن أبي سليمان.



1- عنصر الطين أضعف عنصر:

إذا عرضنا العناصر الأربعة على المعيار السابق، فنجد الطين أكثر العناصر كثافة؛ لأنه من الأرض، والطين ليس كثيفا بنفسه فحسب، بل هو مكثِّفٌ للغير أيضا، فثبت أن كلَّ شيءٍ كثيفٍ سببُ كثافتِه هو الطين لا غير؛ فإن النار لا تُوسِّخ شيئاً ولا تُغَلِّظُه، وكذلك الماء لا يكدِّر شيئا ولا يغلِّظه، بل تُزَال به الغلاظة والكدورة؛ لأن أصلها طاهر ونظيف. وكذلك الهواء أيضاً لا يكدِّر شيئاً ولا يوسِّخه، فمصدر الكثافة هو الطين والغبار الذي لا مناسبة بينه وبين اللطافة بشيء، لذلك لا مكانة له في دنيا العناصر، فالأرض تداس بالأرجل ليلَ نهارَ، بل العناصر الأخرى كلها غالبة عليها، وهي لعبةٌ في أيديها، فيُطيِّره الهواءُ، ويسيل به الماء، وتحرقه النار، وهو لا يملك قوةً تدافع عن نفسه؛ وإنما سَلَبَتْها الكثافةُ المطلقةُ. والتراب مع كونه كثيف المادة والصورة هو كثيف الطبع أيضا؛ لأن مدرا طينيا إذا رُمِيَ به من الأسفل إلى الأعلى بكامل القوة والطاقة فيعلو بقدر أثر قوة الرامي العرضية فيه، وعندما تنتهي قوة الرامي تعود إليه حالته الأصلية وطبيعته الأرضية فيرجع إلى الأسفل.

خلاصة الأمر أن اللطافة غائبة تماما عن مادة الأرض وصورتها، لذلك هي بعيدة عن الله بعدا مطلقا في هذا الوصف، فتحتَّمَ أن يأتي في نصيبها الضعف المطلق والذلة المطلقة، لذلك وصف الله تعالى الأرض بالذلول (الذي هو مبالغة الذليل) في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك:15].

نعم! هناك جزء من الأرض يقال له "الجبال"، التي ترابُها (أي رملها) قَبِلَ قليلا من اللطافة، فأبعد نفسَه عن الكدورة والكثافة نوعًا مَّا، ففاق الطينَ بقدر بُعْده عن الكثافة، لذلك إذا نُفِضَ الرملُ الجافُّ ينتشر يمينا ويسارا، وإذا وضع عليه الماء لا يصير وحلا، وذراته لامعة، وإذا نظرنا إليها من بعيد خدعتنا، وحتى تشتبه الرمال على الناظر فيظنُّها ماءً وبحرا لنقائها وصفائها ولمعانها، (وهذا الذي يقال له: سراب).

الحاصل أن الرمل بقدر وجود اللطافة فيه أصبح أعز من الغبار. وحجر واحد يكسر مدرا كبيرا من الطين، بل يكسر الآجُرَّ المصنوع من التراب، بينما لا تستطيع كتلٌ كبيراتٌ من التراب أن تنال من الحجر شيئا، وبوقوع صخرة على الأرض ترتج الأرض وتهتز، ويحصل فيها صدعٌ وشقٌّ، وحفرة عميقة، بينما الأكوام من التراب إذا وقعت على صخرة لا تستطيع أن تميد بها عن مكانها، فضلا عن كسرها. ثم هذه الأحجار كلما تزداد نقاءً وصفاءً وجلاءً تزداد قيمةً وطاقةً معنويةً، فحجر الصوَّان (Flint) أثمن من الأحجار العادية، وحجر الرخام (مرمر) أثمن من الصوَّان، والجواهر واليواقيت أثمن من الرخام، والألماس (Diamond) أثمن من الكل، والفرق بينها هو قلة وكثرة اللطافة والكثافة والغلاظة والنقاء.



ولكن هذه الجبال وأحجارها القوية تبقى ساكتة عاجزة، أمام الحديد، فمعولٌ حديديٌّ صغيرٌ يقضي عليها تماما في دقائق، فاتضح أن الحديد أشد وأقوى من الأحجار، سرُّه هو اللطافة؛ لأن الحديد ألطف من الأحجار، ولا توجد فيه كثافة الرمل، فضلا عن كثافة التراب، لا تَطِير ذراتُ الحديد فتوسِّخَ الأشياء، وإذا وقع الرمل في الماء فيكدره نوعا ما بكونه من أصل التراب، ولكن ذراتٍ صغارًا من الحديد إذا وضعت في الماء، لا يحصل أي فرق في جلائه ورقته وسيلانه. وكذلك إذا صُقِّل الحديد يتلمع مثل الفضة، بل إذا صقل أكثر فيصبح مرآة يرى فيها عكس ما هو أدق وأرق، بينما الأحجار لا يوجد فيها صلاحيةٌ لقبول التلميع والتصقيل. فاتضح أن الحجر أخزى وأذل من الحديد بهذه اللطافة.

2- عنصر النار أقوى من الطين، وأضعف من الماء:

ولكن هذا الحديد الأقوى إذا مسته النار، فجميع طاقاته وقدراته تذهب هباءا منثورا، فبمجرد مسِّ النار الحديدَ يتغير لونه وشكله، ويشحب وجهه وعارضته، وتذيبه النار وتسيله مثل الماء، مما دل على أن النار أشد وأقوى من الحديد. وسِرَّ ذلك أن اللطافة في النار أكثر منها في الحديد؛ لأن للحديد جسما ماديا، وليس للنار جسم ذاتي، والحديد يكسب النور من الآخر، بينما النار تتنور بنفسها، وتنوِّر الأشياء الأخرى المظلمة أيضا.

ثم الحديد المصقول اللطيف الذي نسميه "مرآة"، هي على رغم لطافتها ثقيلة الجسم وكثيفة المادة، بحيث إذا ضربنا عليها باليد فترتد اليد إلينا من جسمها الكثيف، بينما النار بسبب لطافتها العالية تنفذ اليد فيها، ولا يتكسر جسمها إطلاقا.

ثم الحديد المصقول (أي المرآة) لا يقبل إلّا عكس الشيء، بينما النار تقبل الجسم الأصلي للشيء لا عكسه، ومع ذلك لا يحصل في جسمها أي كسر وخرق، ولا تمنع النار من تداخل الأشياء الأخرى فيها؛ لذا هي أقوى وأشد من الحديد، بل دائرة أثرها أوسع من دائرة أثر الحديد وغيره من الأشياء الكثيفة على قدر توسع حدود لطافتها، فمثلا: الحجر والحديد لا يحيطان إلا بالموضع الذي وضعا فيه، ولا أثر لهما في غيره، وأما النار فتصل آثارها (النور والحرارة) إلى غير مكانها أيضا، بل وإن غاب مكان النار عن الأبصار والأعين فآثارها المنتشرة بعيداً تدل على وجودها، فبهذه الأسباب كلها النار أغلب على الحديد، وأقدر على إفنائه.

3- عنصر الماء أقوى من النار، وأضعف من الهواء:

ولكن النار الملتهبة هذه، تبقى على قيد الوجود إذا لم يكن هناك ماء؛ فإنه يطفئها ويقضي عليها تماما. وسِرُّ ذلك أن النار بلطافتها كان لأي جسم أن يدخل فيها، ولكن بسبب عدم صفاء وجهها لا يُرَى فيها عكسُ ذلك الشيء



وصورتُه، خلافا للماء فإنه يَدخُل فيه ذاتُ الشيء، ويُرَى فيه عكسُه أيضا؛ لأنه لطيف المادة ولطيف الصورة معا. ومن كمال لطافة الماء أن البصر يشقه، والنار لا يشقها البصر، وأيضا دائرة أثر الماء أوسع من دائرة أثر النار، فإذا أشعلت النار في مكان مغلق من جهاته الأربع فيبقى أثر نورها محدودا في ذلك المكان، ولكن الماء إذا وُضِعَ في مكان مسدود فلا يبقى أثره في ذلك المكان فقط، بل يصل أثره من الرطوبة والنداوة إلى الأشياء المجاورة به إلى أقصى حدٍّ ممكنٍ. وأمر آخر أن النار والحديد لا ينفذان في مسام الجسم، بينما الماء ينفذ بلطافته الخاصة في أرق منفذ وأدقه، ومن المعلوم أيضا أن الغلبة والطاقة على قدر اللطافة، فثبت منه أن الماء أغلب وأقوى من النار.

4- **عنصر الهواء أقوى من الماء، وأضعف من الإنسان المتصدق:**

إن الماء الذي كان يقضي على النار، يمسي أمام الهواء مسكينا عاجزا فاقد القوة، فتقلب العاصفةُ البحارَ العظامَ رأسا على عقب، ولا يكون لها مع عظمتها وهيبتها قرار أيما قرار، والماء الراكد يطيِّره الهواء ويجفِّفه، فعُرِفَ أن الهواء أقوى من الماء، وحكمه ماض عليه، وسبب ذلك أن الهواء أكثر العناصر الأربعة لطافة وشفافية، بحيث إن العين ألطف شيء تبدو أمامه كثيفة، فلا تراه، وعندما يلمسنا الهواء فنعرف بحاسة اللمس أن الهواء موجود. وكذلك الهواء بسبب شدة لطافته لا يقبل أيضاً اللون ولا الشكل، اللذين هما من متعلقات البصر.

والهواء موجودٌ في كل زاوية من الزوايا، وفي كل منفذ من المنافذ، وحتى الأماكن التي لا تصل إليها أضواء النار ولا نداوة الماء، يصل إليها الهواء ويحتلُّها. مما دل على أن الهواء ألطف شيء، فلذا صار أقوى شيء وأغلب، يتحكم على جميع العناصر، وهو أعلى وأرفع من الجميع، وهو جارٍ وسارٍ في الكل.

المطلب الثاني: جامع العناصر الأربعة الإنسان وقوته:

ولكنْ كلُّ هذه العناصر ومواليدها الثلاثة والفروع اللامتناهية المتولدة من هذه المواليد إذا وضعناها في كفة، ووضعنا الإنسان بوحده في كفة أخرى، يظهر أن الإنسان أشد وأغلب عليها ومتصرف فيها، وكل هذه العناصر في أداء مُهِمَّتها محتاجة إلى الإنسان ومغلوبة على أمرها، وأما الإنسان فهو ليس تحت تصرف واحدٍ منها، ولا مغلوبا منها، وذلك للأسباب التالية:

1- **قوة الإنسان أشد وهي ذاتية وقوة العناصر عرضية:**

إن نسبة القوة القائمة بين كل عنصر، التي تظهر بلقاء المقابل منها، هي تحتاج في ظهورها الجزئي إلى الإنسان، فالحديد لا يكسر الحجر بنفسه، والنار لا تذيب الحديد بنفسها، والماء لا يطفئ النار بنفسه، والحركات المتخالفة



للهواء لا تَحْدُث بنفسها، بل كل هذه الآثار تظهر بعمل الإنسان، فهو الذي يصنع المعاول ويكسر بها الصخور، وهو الذي يصنع الكير ويُحْمِي فيه الحديد، وهو الذي يأتي بالماء في القرب والأسقية، وهو الذي يبرِّد الموقدَ، وهو الذي يقيِّد الهواء، وهو الذي يطيِّر السيالات. فثبت مما سبق أن أعمال العناصر الأربعة المغلوبة رهينة بأفعال الإنسان إلى حد بعيد.

2- تصرفات الإنسان في العناصر الأربعة:

جميع قوى تلك العناصر وطاقاتها في تصرف الإنسان، ومسخرة له، فشقَّ الإنسانُ صدرَ الأرض، فحفر الآبار فيها، وعمل فيها السراديب، واستخرج من معادنها، وشق فيها الطرق والشوارع، والأنفاق والأسراب، وسَيَّرَ فيها القطارات والسيارات، ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً﴾ [الشعراء:149]، وكشف عن خزائن الأرض ودفائنها، ومازال يستخدم الأرض وأجزاءها كالخدم والعبيد.

والماءُ، بحث عنه الإنسان في قاع الأرض وعمقها، وأجراه في الأنهار والجداول، وسقى به الحقول والمزارع، وبرَّد به المنازل، وشربه الإنسان، وغسل به أوساخه من البول والبراز وغيرهما.

والنارُ أخطرُ عنصرٍ وأسفكه، ولكنها أمام الإنسان تبدو عبدا مجبورا ذليلا، فإذا اختفت النار في الحديد والحجر يستخرجها الإنسان منهما بضرب أحدهما على الآخر، وإذا اختفت في الشمس فيقيدها الإنسان بالزجاجات النارية، وإذا عاد الإنسان نفسه أن يُخَبِّئها ويقيِّدها هو فيقيدها على رأس عودٍ في قليل من الكبريت. الحاصل أن عنصر النار أيضا دُمْيةٌ بأيدي الإنسان، قَلَّبها متى شاء، وصرَّفها متى أراد، ولم يتركها لتستريح.

والهواء كان أكثر العناصر لطافة وحجابا، ولكنه أصبح لعبة بيد الإنسان، فتَطِير طائراتُه في الفضاء الهوائي، ويحملها على أكتافه متنقلةً بها هنا وهناك، كأن الهواء ليس بهواء، وإنما هو حصان هوائي للإنسان. ويخدمه الإنسان في اتصالاته وإعلاماته، فهو ينقل أخبار العالم، كأنه ساعي بريدٍ للإنسان يخدمه بدون أجرة وبالمجان. واستخدمه الإنسان فيحرك به مراوحه الكهربائية، ويجفِّف عَرْقَه، وحبسه في كفرات عجلات السيارات، والدراجات النارية والهوائية، والبنادق والكرات المطاطية. الحاصل أن هذه الطاقة الغير المرئية التي كانت قد قلبت البحار رأسا على عقب، لما قيدها الإنسان أصبحت بأيديه سجينا محضا، لا أحد يسأل عنه وعن حاله.



3- إيجادات الإنسان في العناصر:

لم يقتنع هذا الإنسان الجبَّار بذلك القدر من التصرف في العناصر الأربعة، بل حمله حبُّه للإبداع والإيجاد على أن يفني هذه العناصر بخلق الصراع بينها، فيأتي بإيجادات جديدة، ليستخدم الخزائن الأخرى المدفونة في الكون أيضا، فمثلا:

هو بخلق الصراع بين الماء والنار يوجد طاقةً بخاريةً، يسيِّر بها محرِّكَ القطارات والماكينات، ...

وبإيجاد الصراع بين الماء والماء، ولَّد (الكهرباء) البرق الذي يأتي بأخبار الأقاليم في دقائق، ويجعل الأرض والسماء شيئا واحدا. وهذا البرق أيضا قيده الإنسان في أسلاك النحاس والصفر تقييدا، لا يستطيع أن يفك نفسه من قبضتها. وليس هذا حال البرق الصناعي (الكهرباء) فقط، بل استعد الإنسان لقيد البرق السماوي أيضا في الأغلال والقيود، فنصب على سطوح المباني الشاهقة قضيبَ "مانعة الصاعقة" الواصل إلى ما تحت الأرض، لمنع نزول الصواعق عليها وإضرارها بها؛ لأنها عند نزولها على تلك المباني يشغلها ذلك القضيب بنفسه، ويُنزِّلها مطيعةً إلى الأرض بواسطته.

وبعمل الصراع بين النار والبترول السيال (بإشعال النار فيه)، ولَّد الناريُّ البتروليُّ الغازات، التي تسير بها سيارات الإنسان السيد، وتطير بها طائراته.

المطلب الثالث: سرُّ قوة الإنسان وتسخيره هو روحه:

من الواضح جدا أنه لا يوجد في ظاهر الإنسان شيء لطيف؛ لأن جسده مجموع من النار والماء والتراب والهواء، فهو جزء من كل منها، والجزء لا يسخر الكل. فلا شك في أن تسخيرَ الإنسانِ هذا الكونَ ليس بلطافة جسمه، ولا بلطافة الماء والنار والهواء الموجودة فيه، بل يبدو أنه بواسطة شيء آخر ألطف من الهواء أيضا؛ بحيث لا يحس بلمسه أيضا مع أنه يسري في شرايين الإنسان وعروقه، ومن الواضح جدا أنه لم يبق في جسم الإنسان شيءٌ هذه صفاتُه غير الروح؛ لأن الإنسان مركب من الجسد والروح، وهذه القوة ليس في جسده، فثبت منه أن هذه معجزة الشيء الثاني وهو الروح.

1- لطافة الروح الإنساني والنورانية الحسية:

ثبت أن الروح ألطف من العناصر الأربعة، ومن كل عا لم مادي، ولطافة الروح هذه ليست معنوية ولا مرئية فحسب، وإنما هي حسية أيضا، وأنواع اللطافات التي كانت في العناصر الأربعة تجدها كلها في الروح أيضا.



فالمرآةُ المصقولةُ والماءُ الصافي يعكسان الصورَ، وعينُ الإنسان أيضا أعطاها الروح بريقاً تعكس به كلَّ ما تقع عليه من المناظر والصور والمشاهد، ولكن الفرق بينهما أن صورة المرآة لا أصل لها؛ لأن جانبها الخلفي فارغ، بينما الصورة التي تعكسها العين مازالت باقية؛ فإن وراءَ العين حسًّا مشتركًا يبقى فيه كلُّ عِلْمٍ مصوَّرٍ.

إن كانت الأشعةُ تنتشر من النارِ فتنتشر من العين البصارةُ، التي ليست أقل من الأشعة بأي حال من الأحوال؛ إذ بالأشعة تتنور الأشياء أمام العين فقط، وبالبصارة تتنور الأشياء أمام القلب، الذي يفكر في حقيقتها أيضا.

وإن كان الماء ينفذ بلطافته في الأجسام، وحتى في أصلب الأجسام أيضا، والروح أيضا إذا اتصلت بالأجسام فتنفذ في كل شريان من شراييتها، وحتى أصلب العظام أيضا تأخذ منها النداوة والنضارة، ثم إن الماء يبرِّد فقط مكانه بسريانه، بينما الروح فهي تحيي مكانها بدورانها.

وإن كان الهواء لا يُرَى بغاية لطافته فالروح أيضا بسبب لطافتها اللامتناهية لم يُرَ حتى يومنا هذا، وكما لا يُحَسُّ بلون الهواء ورائحته، أو ليس له لون ورائحة إطلاقا، كذلك الروح أيضا بريئة من هذه الخواص.

الغرض: كل ما للعناصر من كمالات اللطافة ودرجاتها ومراتبها، هو موجود في الروح أيضا، لذلك إن كانت للعناصر مناسَبَةٌ جزئيةٌ مع الله تعالى وبها كانت قوية، فللروح مع الله كل تلك المناسبات مجتمعةً، لذلك يلزم أن تكون الروح أقوى من العناصر، وما تستطيع العناصر أن تعمله بصعوبة، يعمله الروح بكل يسر وسهولة.

2- لطافة الروح وطاقته معنويتان بحيث إنها مماثلة لله تعالى نوعا ما:

نجد أن مناسبة الروح مع الله تعالى ليست مثل مناسبة العناصر مع الله، بل هي مماثلةٌ له تعالى نوعا ما، في أوصافه وكمالاته الخاصة، فمثلا: الله سبحانه وتعالى مدبر وقيوم للعوالم كلها بطريقة غير مرئية، فالروح أيضا مدبر وقيوم لعالم البدن بطريقة غير مرئية، فلو اعتزل الروح عالمَ البدن ليتغير نظامُه تماما كما يصير عند الموت.

وأنوار الله تعالى تتجلى في كل ذرة من ذرات الكون، وتَستخدِم كلَ جزء من أجزاء الكون ومناطقه حسب ما يليق لها، ومع هذا الظهور التام لها لم ترها عينٌ مَّا، وكذلك أنوار الروح أيضا تسري في جميع كائنات البدن، وتستخدم كلَّ عضو من أعضائه حسب ما يليق لها، ولكنها غير مرئية حتى الآن، بحيث إنها نفسها لم تر ذاتها، فهي ظاهرة ومختفية في وقت واحد، فكما الله ظاهر وباطن، كذلك الروح أيضا ظاهرة وباطنة.

ثم إن الله تعالى أولُ وأقدَمُ من حياة هذا الكونِ وحركاتِها ونقلاتها؛ لأنه هو الذي أعطى لكلِّ شيء في العالم الوجودَ. ثم الله تعالى هو منتهى كل شيء أيضا في العالم، وإليه تنتهي جميع حركاته ونقلاته، فهو أول كل شيء وآخره. وكذلك الروح، فهي أولُ جميع حركات عالم البدن ونقلاته؛ إذ بها وجود البدن وحياته. وكذلك لما كانت الروح سببا لحياة



البدن فلا يكون أيُّ عملٍ لعالم البدن مؤخرا عن الحياة، فثبت أن الروح هي مبتدأ الحياة، وهي منتهى الحياة أيضا، ومن ثَمَّ ثبت أن الروح هي أول عالم البدن، وهي آخره أيضا، كما كانت ظاهرة وباطنة.

ثم هذه الروح متصلة بالله تعالى بحيث إنه ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:16] و﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:4]. وهي منفصله عن الله أيضا بحيث إن مخلوقات وراء الوراء ثم مخلوقات وراء وراء الوراء مجرد ظلمة، وهو نور مطلق. ومثله تماما الروح، فهي متصلة بالبدن الحي بحيث إنه إذا انفصلت عن جزء من أجزائه فلا يكون حيا، وهي منفصلة عنه أيضا بحيث إن طهاراتها لا صلة لها بالبدن؛ إذ لا علاقة بين اللطيف والكثيف، أنَّى هذا الطين؟ وأنَّى ذلك الجوهر الطاهر؟ وأين المصباح الميت؟ وأين نور الشمس؟.

3- **الاستدلال على الإلهيات بصفات الروح:**

ويمكن لنا أيضا أن نستدل بروحنا على وجود الله الصانع، فنقول: إن عالم أبداننا لا وجود له ولا بقاء بدون مدبرٍ له غيرِ مرئيٍّ وهو الروح، كذلك هذا الكون كله لا وجود له ولا بقاء بدون مدبر حكيم وهو الله.

وأما استدلالنا على توحيده بالروح فلما كان للبدن مدبر واحد وهو الروح، لا اثنان أو أكثر وإلا يفسد نظام البدن، كذلك لا يكون لهذا الكون إلا مدبر واحد؛ إذ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:22].

ثم كما ليس للروح كمٌّ ولا كيف، ولا لون ولا جهة، كذلك الله سبحانه أيضا مبرأ من المثلية والجهة واللون والرائحة. فتوفر بفضل الروح دليل من أنفسنا على تنزيه الله تعالى وتقديسه.

ثم إن الروح سارية في جميع أجزاء البدن، ولكن علاقتها مع جميع الأجزاء مختلفة شدة وضعفا، فعلاقته بالقلب ليست مثل علاقتها بالدماغ، أو بالكبد والمعدة، وعلاقتها بهذه الثلاثة ليست مثل علاقتها بعامة أعضاء البدن الأخرى، لذلك أدنى إيذاء أو إهانة للقلب والدماغ يُغْضِب الروحَ غضبا شديدا، وبأدنى ضرب على هذه الأعضاء الرئيسة تطوي الروح بساطَها وتغادر هذا البدنَ، خلافا للأعضاء الأخرى العامة، فلا تسلب الحياة بقطع اليد أو الرجل مثلا. كذلك تجليات الله تعالى سارية في العوالم كلها، ولكنها متفاوتة بتفاوت علاقته مع المواضع شدة وضعفا، فعلاقته بالعرش العظيم ليس مثلها لأي موضع من مواضع السماء؛ لأنه مركز استوائه عليه، ثم علاقته بالبيت المعمور ليس مثلها لأي موضع من مواضع السماء؛ لأنه قبلة الملائكة[4]؛ ثم علاقته مع بيت الله والمسجد الأقصى والحرم النبوي ليس مثلها

[4] ورد في حديث الإسراء: «ثم رفع إلي البيت المعمور، قلت: يا جبريل! ما هذا؟ قال: هذا البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة، إذا خرجوا منه لم يعودوا فيه آخر ما عليهم» أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ج3، ص1173، رقم3035؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات، ج1، ص149، رقم164.



لأي موضع من المواضع، ثم علاقته مع المساجد العامة ليس مثلها لأي مكان من الأماكن. لذلك إذا أهين أي واحد مما ذكرنا أو هوجم عليه فيستشيط الروح الأعظم (أي الله) غيظا، وهكذا انكشفتْ علينا بفضل الروح علاقةُ الله تعالى مع مخلوقاته.

ثم كما أن كل إنسان يسمع نداء روحه بآذان قلبه بلا كلفة، ويدرك نصائح الروح بواسطة القلب، مع أن كلام الروح ليس فيه صوت ولا لفظ، كذلك تماما كلام الله تعالى كلام، وفيه حقائق، وفيه سماع وإسماع، ولكن الأنبياء عليهم السلام الذين هم بمثابة القلوب في بني النوع الإنساني، هم يسمعونه مع أنه لا ألفاظ هنا، ولا تلفظ؛ ولو تصبح هذه التجليات بارزة بعد وصولها إلى الناس، فتبين من خلال هذا البيان أننا بفضل الروح أدركنا نوعًا مَّا الكلام النفسي لله والكلام اللفظي له.

ثم إذا أغمضت عينيك فالروح ترى وتبصر، وإذا أصممت أذنيك فالروح تسمع، بل الروح في عالم التصور اللا محدود ترى عند إغماض العيون الأشياء المرئية أفضل وبلا كلفة، وعند إصمام الآذان تسمع الأشياء المسموعة بلا ريب، مع أنه لا يتصادم مع الروح صوتٌ، ولا تقترب منها صورةٌ ملونةٌ ولا جسمٌ مجسمٌ، وكذلك تماما يسمع الله تعالى كل شيء ويراه بلا مانع ولا حائل، مع أنه ليس هناك لون ولا شكل، ولا صوت، وغيرها من الماديات، فثبت بروحنا سمعُ الله وبصرُه بلا كيف وبلا مثل.

وإذا ألقينا النظر على أن حياة عالم البدن بالروح، والروح لا يحتاج إلى روح آخر، بل هو نفسه حي بذاته، وكذلك حياة العوالم كلها بالله سبحانه وتعالى، وهو لحياته ليس في حاجة إلى إله آخر، بل هو حيٌّ واجب الوجود بذاته هو، وهكذا علمنا من داخلنا أن الحياة صفة ذاتية لله سبحانه وتعالى.

ففي ضوء ما سبق ليس للروح مناسبات مع الله تعالى فحسب، بل بينهما مماثلات عديدة أيضا، أُوْدِعَتْ بسببها في نفوسنا نماذجُ لكمالات الله اللامحدودة، وقَدَرْنا بذلك على أن نرى كل شيء في داخلنا عيانا، فلذلك لا يمكن أن يكون للروح تعريف جامع أكثر مما ذكره القرآن الكريم: ﴿الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء:85].

فثبت مما تقدم أن الروح أمر لطيف رباني، والجسم كثيف مظلم مادي، ولكنَّ هذه العناصر البدنية التي هي من عالم الخلق، بعد إيجاد أدنى مناسبة بينها وبين الروح، تقوَى بحيث تصبح الدنيا كلها في قبضة يديها، فالروح التي هي من عالم الأمر، والتي لا حد لعمق مناسبتها بل مماثلتها مع الله، فَأَمَا تصبح هي بتلك المناسبة والمماثلة أقوى وأغلب وأكثر تسلطا؟ وإذا اسْتُخْدِمَتْ قوتُها بطريقة صحيحة فهل يستطيع هذا الكون أن يتحملها؟.



فالإنسان أقوى بكثير من النار والماء والتراب، ولكن هذا ليس بفضل البدن، بل هذه القوة العظيمة للإنسان، وهذه الأفعال العظيمة لتلك القوة، إنما تظهر بفضل الروح المودعة فيه؛ إذ لا حدَّ لِلَطافة الروح، فهي مجموعة اللطافة السفلية والعلوية، فثبت بذلك أن الروح أقوى وأشد من جميع الماديات وجميع العناصر.

فكما وضع الله سبحانه تعالى أمثلةً نموذجيةً لنفسه في عالم الآفاق، كي تُدْرَكَ وتُحَسَّ بواسطتها نوعًا مَّا كمالاتُه الظاهرةُ وآياتُه البينةُ، كذلك هو وضع لنفسه أمثلة أكثر وأكثر في أنفسنا نحن، لنستطيع بها أن نصل على قدر استعداداتنا إلى شؤونه الباطنية وكمالاته الباطنية بطونا عن بطون ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:53].

الغرض أن كمالات "العلوم" يبدو أنها تظهر من البدن وعناصره، ولكنها في الحقيقة تظهر من الروح التي طاقتها غير المرئية جعلت العناصر الأربعة على رهن إشارتها، ولا تتركها تستريح كالعمال والأجراء.

المطلب الرابع: الاستعمال الخاطئ لطاقات الروح:

ولكن نتساءل: ماذا استفادت الروح من كمالاتها الباطنيةِ والأعاجيب الكثيرة التي عملتها في المواليد الثلاثة؟ الظاهر أن البدن هو الذي استفاد من كل تلك الإيجادات العلمية، مثل حرارة النار في الشتاء القارس، وتبريد الماء في الصيف الساخن، والاستمتاع بالهواء في الغيث الماطر، كل هذه الراحات والرفاهيات للبدن فحسب، لا للروح. وكذلك طارت الطائراتُ في الفضاء بالبدن لا بالروح. وكذلك تعود فوائد القطارات والسيارات وجميع الإيجادات المادية والاختراعات العلمية إلى البدن فقط، لا الروح.

ومعنى هذا أن الروح التي كانت ألطف وأعلى من العناصر، وكانت تغلب عليها وتحكمها، جعلتَها أنت أيها الإنسان بحيلك وتدابيرك خادمةً للجسم الكثيف، وهذا قلب الموضوع.

مع أن الروح مِلِكٌ عالِمٌ فاضلٌ، أُوْدِعَهُ ملكاتٍ طاهرةً للمحسوسات والمعقولات والوجدانيات، وهي تحكم بهذه الملكات عالَم البدن وعالَم الكون كله، فالعقل رئيس وزرائها، والنقل دستورها، ولكن هناك معهما خادم لئيم وشِرِّيرٌ، يُصْدِر أحكامَ السلطنة في البلد، وينفِّذها الوزراء والمسؤولون، وذلك الخادم اللئيم الشرِّير هو البدن مجموع العناصر الأربعة، وصفناه باللئيم لأن أي جزء يقترب منه بجهده، هو يعاديه ويقتله، فالصنم الثقيل من الطين أو الحجر، عند سقوطه من الأعلى يرضُّ أولاً رأس عابده المقرب إليه. والبحر عند فيضانه يغرق العابد المقرب إليه. والنار أول من تحرقه هو عابدها المقرب إليها. وهكذا عباد العناصر الأخرى. فأي لؤم وأية سخافة لهذه الماديات يكون أكثر من أنها لا تُفَرِّق بين الصديق والعدو.



1- عواقب الاستعمال السيئ لقوى الروح هي الحرمان والخسران:

فمادام ذلك الخادم اللئيم (البدن) استخدم الروحَ على طريقته لهواه وشهواته الجامحة، وسعَّر نارَ الحرب بينه وبين العقلِ بعيدِ النظر، وألْقَى بدستور النقل (أي القرآن والسنة) في سلة المهملات والنسيان، وألْهَى الروحَ وشغَلَها عن أعمالها الحقيقية ومنافعها الثابتة واعدًا إياها بوعود معسولة بنيل الحظوظ النفسية، وتكميل المنافع العاجلة، فاغترت هذه الروح المغفَّلة بتلك الوعود، وبدأت تسعى بقوتها الكمالاتية لتحصيل الحظوظ، التي سيستمتِع بها أصلاً ذلك الخادمُ اللئيمُ (البدنُ)، فهذا يعني أن البدن قد وجد شيئا ما، ولكن الروح مازالت صفر اليدين، بل كلُّ ما كانت الروح قد عقدتِ العزمَ على تحصيله أصبحت فيه أيضا محتاجةً إلى ذلك الخادم اللئيم، إلى حدٍّ أنها إذا كانت في مدينةٍ فيها الأجهزة الكهربائية ونظام توليد البخارات، فهي تعمل عملها بكل كمال وإتقان، وتذيع الأنباء عبر الراديو، وتتصل بالأقارب عبر التليفون، ...، ولكنها إذا كانت في قرية لا توجد فيها هذه الوسائل المادية، تصبح هذه الروح عاجزةً وعاطلةً عن العمل كأي معوَّقٍ عاجزٍ بطَّالٍ.

وحاصل كل هذا أن هذه الروح بعد نقلها كمالاتها الأصليةَ والجوهريةَ إلى الحديد والنحاس أصبحت خالية وفقيرة ومحتاجة بحيث لا يكون للاحتياج والعبدية مثالٌ أسوأ منها، والحال أن الروح كانت جامعةً للشؤون الربانية، وحاملةً لقسط وافر من العلم والمعرفة، وخزينةً للَّطافات والطاقات، كان من المفروض أن تكون مستغنيةً وغيورًا بأن لا تكون محتاجة إلى إمائها وعبيدها، وموادِّها اللاشعورية والغير العاملة.

على كلٍّ، فإن أمكن للماديات أن تُظْهر بفضل الروح عجائبَ، فكان من الممكن أن تُظهر الروحُ والروحانياتُ مثلَ تلك العجائبِ بل أفضل منها، ليظهر استغناءُ وغيرةُ هذه الروحِ الغيرِ المحتاجةِ ظهورا واضحا، وإلا فيصبح المستعير قويًّا، والمالك ضعيفًا بالكلية، والعبد حاكمًا، والملك محكومًا عاجزًا مكتوفَ الأيدي.

2- عجائب القوى الروحية المحيرة للعقول:

لا تظنَّنَّ أن هذا من الخيال، أو هو نظرية علمية، بل الروح عند ما سارت على فطرتها ظهرت على يديها مثل هذه العجائب، واستخدَمَتِ المادةَ بروحانيتها استخداما كاملا.

فهذا عمر الفاروق الأعظم ﵁ نادى من على منبر المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة: "يا ساريةُ! الجبلَ"[5]، ووَصَلَ هذا النداءُ إلى جبال نهاوند في العراق، وما كان أحدٌ قد حَلَمَ آنذاك بالجهاز اللاسلكي.

---

[5] فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَال: وَجَّهَ عُمَرُ جَيْشًا، ورَأَّسَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً يُدْعَى سَارِيَةَ، فَبَيْنَا عُمَرُ ﵁ يَخْطُبُ جعَل يُنَادِي: يَا سَارِيَةُ! الْجَبَل (ثَلاَثَ مَرَّاتٍ)، ثُمَّ قَدِمَ رَسُول الْجَيْشِ فَسَأَلَهُ عُمَرُ، فَقَال: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! هُزِمْنَا فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ سَمِعْنَا صَوْتًا يُنَادِي: يَا سَارِيَةُ! إِلَى الْجَبَل (ثَلاَثَ مَرَّاتٍ)، فَأَسْنَدْنَا



وأذَّن إبراهيم ﷺ بالحج واقفا على مقام إبراهيم، فوصل صوت هذا الأذان إلى آذان الأجنَّةِ في أرحام الأمهات[6]، فضلا عن كل طرف من أطراف العالم، مع أنه لم يكن بواسطة مكبر الصوت.

وكان النبي ﷺ قد سمع صوتا لفتح باب جديد في السماء وهو جالس على الأرض[7]، ومن المتأكد أن هذا الصوت لم يُسْمَعْ بواسطة آلةٍ برقيةٍ.

هذه وآلاف من أمثالها من الواقعات مسجلة في بطون التاريخ، يعرف بها أن مالكي القوى الروحانية ما صاروا عبيدا للعناصر المادية يوما ما، بل هذه الماديات عملت على إيماء الروحانيات، وجعلت نفسها عبيدا لها.

3- **التصرف المادي ليس بكمال حقيقي:**

لقد اتضح من النماذج الثابتة للقوة الروحانية، والأمثلة الصادقة للخوارق، أن الكمال الأصلي للروح يكمن –في الحقيقة– في استغنائها عن المادية، وتحرُّرِها عن قبضة الوسائل المادية، وإلا فأيُّ تصرُّفٍ للروح في الماديات بواسطة المادة ليس كمالاً خاصًّا، ولا عملاً ممتازًا؛ فإن هناك مادةً تتصرَّف في مادةٍ بدون واسطة الروح، فالغبار يردم البحرَ في قرونٍ بذَرْوِ الرياحِ وتطييرها إياه إليه. والماء الجاري يجعل في الأرض اليابسة المنخفضة مجاري جديدة له، ثم يحوِّلها بحرا، وكذلك يجعل البحر برا بالطريقة نفسها. ويجعل البركانُ الفضاءَ نارا. ويجفِّف الهواءُ الأحواضَ والمستنقعاتِ بهبوبه المتكرر عليها. فإن كان التصرف في المادة كمالاً فتفعل القُوَى الماديةُ أيضا ذلك الكمالَ بدون أيِّ توسُّطٍ للروحانية فيها.

ظُهُورَنَا إِلَى الْجَبَلِ فَهَزَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَكَانَتِ الْمَسَافَةُ بَيْنَ الْمَدِينَةِ حَيْثُ كَانَ يَخْطُبُ عُمَرُ وَبَيْنَ مَكَانِ الْجَيْشِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ. أخرجه ابن عساكر في **تاريخ دمشق**، ج20، ص24. وانظر: ابن حجر، **الإصابة في معرفة الصحابة**، ج1، ص410. وهو صحيح.

[6] ففي **تفسير ابن كثير**، ج3، ص264: وقوله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أي ناد في الناس بالحج، داعياً لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه، فذكر أنه قال: يا رب! وكيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟ فقال: ناد وعلينا البلاغ، فقام على مقامه. وقيل: على الحجر. وقيل: على الصفا. وقيل: على أبي قبيس. وقال: يا أيها الناس! إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة، لبيك اللهم لبيك" ثم قال ابن كثير: "وهذا مضمون ما روي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف".

[7] فقد روى الإمام مسلم في **صحيحه**، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة، ج1، ص554، رقم806 بسنده عن ابن عباس قال: "بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ، سمع نقيضا من فوقه، فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم =

= لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم فسلم، وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته".



ومن المؤكد أن إنسانية الإنسان أفضل من العناصر بدرجات، وأن الإنسان أعلى وأشرف نوع في المواليد الثلاثة، فلا يكون كماله الذي يمتاز به أو يفتخر به هو ذلك الشيء الذي يصدر عن أشياء أرذل منه، خاصة إذا كانت تصرفات الروح تلك بواسطة هذه الماديات أيضا، كأن الروح غير قادرة على تلك التصرفات بدون تلك الوساطة، إن كان الأمر كذلك فهذا ليس عدم كمالية للروح فقط، بل هو عيب مكشوف فيها بمعنى أنها أصبحت محتاجة إلى أشياء أرذل منها، وتبحث عن كمالها في تلك الأشياء الأرذل؛ لأن أصلَ عيبٍ في كاملٍ هو استكماله بالغير الذي هو أرذل من ذلك الكامل، وأما استكمال الشيء بالأفضل منه فهو خيرٌ فنٌّ؛ لأن كون الشيء ذا كمال بنفسه، وعدم استكماله بالغير هذا شأن ذاتٍ واحدةٍ فحسب، ألا وهي ذات الحق تبارك وتعالى المباركة، التي هي منزهة من كلّ عيبٍ، ومنبعُ كلِّ كمالٍ. ومن البيِّن أن المعيوب لا يصير كاملا إلا برجوعه إلى الذاتِ منبعِ الوجودِ (أيْ الله تعالى) واستكماله به، تلك الذات التي هي مخزنٌ لجميع الكمالات، ومبرأة من كل العيوب، لا أن يركن لتحصيل الكمالات إلى أرذل منه؛ لأن المادية ليست للإنسان ما يتشرف به ويفتخر به؛ لأن ماديته هي نفس مادية الحمار والثور.

فإن كانت حقيقة العلم الحديث مجردَ أن يقدر الإنسان على التصرفات بالمادة في المواد؛ فلم يخرج الإنسان في هذه الصورة من عُشِّه الْمَبْنِيِّ من النار والماء خروجًا يقال به: إنه نال الإنسانية الحقيقية، بل يثبت أنه إنسان ناقص ومعيوب بعيبٍ أَخْجَلَ فوق التصور، وإلا فلا يثبت له على الأقل فضلٌ تظهر به ميزةٌ للإنسانية.

4- أصل الاحتياج في الإنسان هو المادة:

لو كان في المادة قليل من الاستغناء لكان يمكن أن يحصل للإنسان الاستغناء من عبدية المادة، ولكن لما كانت الصفة الذاتية للمادة هي الاحتياج والتبعية، فكأنَّ المجبورية هي ما تمتاز به المادة، فبدلا من أن يحصل لها الاستغناء من عبوديتها، يفنى الاستغناء الحاصل أيضا، وهو لا يزال يتوحَّل في المجبورية التي هي أصل كل الذلة والهوان، فاستسلام الروح الجوهر المستغني للمادة المجبورة هو بمنزلة خنق ما تمتاز به الروح من شأن الاستغناء.

المطلب الخامس: أخلاق العناصر الأربعة وخصائصها الاحتياجية:

بقي علينا الآن معرفة السبب: لماذا هذه العناصر الأربعة محتاجة؟ ومن أين جاءت فيها هذه المحتاجية؟

من الواضح أن خيريَّةَ شيءٍ وشرِّيَّتَه تنبعث من أخلاقه الطبيعية، وأخلاق العناصر الأربعة الطبيعية والجبِلِّية هي احتياج وعبدية، لذلك كلما تكون علاقة النفس الإنسانية بالمادة والماديات تكون محتاجيتها وعبديتها على قدرها؛ لأن نشأة النفس الأمارة للإنسان وتركيبتها من هذه العناصر الأربعة، مما تؤدي بالإنسان إلى السفلية والدونية والدناءة والمحتاجية، التي تهدي إليها العناصر الأربعة هداية صامتة، ولولا غُلِّبَ على الإنسانية نورُ الروحانية أو لولا أوت



الإنسانية إلى روحانيتها لَمَا بغت هذه العناصر الأربعة أن تخرُجَ الإنسانية من أوحال الاحتياج والعجز، بسبب كون طينة المادة وجبلَّتها الاحتياجَ والعجزَ.

1- التراب وأخلاقه الجبلية هي القبض والبخل:

فالخاصيته الجبلية والأساسية للتراب هي التسفُّل والدونية، وخاصيته المعنوية والأخلاقية هي القبض والبخل، لذلك إذا وُضِعَ شيءٌ في الأرض فتضمُّه إلى نفسها وتريد أن تهضمه، ولا تعطيك إياه إلا بعد أن تشق صدرها وتستخرجه منها أنت بنفسك.

ولما كانت هذه المادةُ القابضةُ والبخيلةُ جزءًا أعظمَ للإنسان، حتى قيل فيه إنه: قبضةٌ ترابيةٌ، جاء فيه طبيعيا ذلك الخلق: القبض والبخل، فيولد الولدُ ويصيح للقبض والبخل أي للأخذ والهضم، لا للإعطاء والترك، أيُّ شيء وضعتَه أمام الولد فهو يرفعه ثم يذهب به طبيعيا إلى فمه، ليقبضه ويهضمه، وإذا استمررتَ في إعطائك للولد ما يأكله يصمت، وإذا سلبته منه يصيح ويبكي.

ومن الظاهر أن القبض والبخل اللذين منشأهما الحرص والطمع يخلقان فيه المحتاجية والعبودية، لا الغنى والاستغناء؛ لأن البخيل يحتاج إلى المعطي، ثم يحتاج إلى الشيء المعطى، الذي لا يقدر على أن يُبعِد قلبَه عنه، فظهر أن البخيل أولُه احتياج وعبدية، وآخرُه احتياج وعبدية، ولما كان هذا الوصف وصفا امتيازيا للأرض، لذلك احتياجُها وذلتُها أكثر من احتياج وذلة العناصر كلها، فيبقى هذا الإنسان الطيني -مادام طينيا- جبليًّا أسيرًا لرذيلة البخل، التي كلها احتياج وذلة، وإن أصبح السخاءُ والإيثارُ حِرفتَه بدلا من القبض والبخل فثمرته هي الاستغناء الذي كله العزُّ والمحبوبيةُ، والذي ليس فيه مكان للاحتياج إلى الغير والعبودية له، بل هو الذي يستخدِم الغيرَ ويُعبِّده لنفسه.

2- النار وأخلاقها الجبلية هي الترفُّع والتعلِّي:

وهكذا النار، جبلتها وخاصيتها الطبيعية هي الترفُّع والتعلِّي، لا تطأطئ رأسها، وإذا كبسناها لمصلحة راجحة لا تنكبس، كأن النار ضد التراب، فهو بكل جسده تسفُّلٌ وتدَنٍّ، وهي بقمَّة رأسها وأخمص قدميها ترفُّعٌ وتعلٍّ، وبالحجة نفسها رفض الشيطان أن يسجد لآدم قائلا: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:12].

ومن الواضح أن الإنسان قد وُضِعَ في خميرته قسطٌ وافرٌ من النار، وكفى بحرارة جسمه دليلا عليه، لذلك عندما يصبح الإنسان مغلوبًا بالتعلي والأنانية تسري فيه موجة الغيظ والغضب، ويتحمَّر وجهُه حمرةَ النار. وخلق الترفع والتعلي كلُّه احتياجٌ وذلَّةٌ؛ لأن حاصلَ تعلِّي الإنسان وترفُّعه محاولةٌ منه لإبراز نفسه كبيرا على الآخرين، أو إيحائه في أذهانهم بأنه كبير، فتبين من هذا أن الترفع في الحقيقة يحتاج إلى وجود الآخرين، وإلى خيالهم، مما يعني أنه إذا لم يكن



أولئك الناس الآخرون، أو لم يلتفت خيالهم إلى أنه كبير، أو مال عنه، فتنهدم تلك العمارة التي بناها لكبره، فأية محتاجية تكون أكثر من أن تكون عِزّتنا في يد الآخرين، ورفعتنا في خيالاتهم.

الغرض أن الإنسان إذا ما بقي سجينا في قفص النار يجعله هذا الخلق الناري محتاجا وذليلا؛ لأن خاصية الاحتياج ذلة ومسكنة.

3- الهواء وأخلاقه الجبلية وهي الانتشار والتوسع:

إن الهواء خاصيته الانتشار والتوسع والعموم، يوجد في كل مكان، يدخل في كل منفذ، ويملأ كل فراغ، الغرض ما من ذرة في العالم إلا وهي عارفة له ومتعلقة به.

ومن المعروف أن الإنسان يوجدُ فيه جزءٌ من الهواء أيضا، يعرف ذلك بالرياح والتنفس وغيرهما، لذلك يريد هذا الإنسان أيضا أن يوجد في كل مكان، ويدخل في كل منفذ، ويكون له حضورٌ في كل زمان ومكان، ولكن لما لا تستطيع نفسه المادية أن تمد رواقها على كل شيء بحيث توجد في كل مكان، لذلك يريد هذا الإنسان أن يطير صيته، ويشتهر اسمه بين الناس بحيث أن يذكروه في كل مكان، وبهذه الطريقة يتمكن هذا الإنسان من وجوده في كل مكان تأسيا بعنصره الهواء.

فتبين أن خُلُق هوى الإنسان للشهرة أثرٌ لذلك الجزء الهوائي فيه، وإذا تأمّلتَ فيه فتصل إلى أن حاصلَ خُلُقِ حب الشهرة هو احتياجٌ، بل عدة احتياجات؛ إذ لا يتم هوى الإنسان هذا إلا بأن يكون هناك: ناس آخرون، ثم أن يعرفوه، ثم أن يُشهِروا أمره في كل مكان، وأن يذيعوه على جناح الريح، خلافاً لضده الذي يقال له الإخفاء والتستر، الذي حقيقته هي فرحته في نفسه، واستغناؤه عن الغير، مع أن ثمرة الشهرة الإلهية التي تترتب على هذا الاستغناء تكون أثبت بكثير من تلك الشهرة الجبلية المصنوعة.

4- الماء وأخلاقه الجبلية هي عدم الكف وعدم الضبط:

وهكذا الماء أيضا لأن فعله الطبيعي هو عدم الكف وعدم الضبط، أي لا يعتمد الماء على نفسه، فلا يستطيع أن يكف نفسه بنفسه، إلا أن تُقامَ في الجوانب الأربعة سدودٌ فينسدّ، ولكن إذا ما انكسر السدّ سال وانتشر هنا وهناك. كذلك هو يجري مستقيما كأنه معتمد على نفسه، ولكن إذا ما وجد منخفضا يمينا أو يسارا جرى معه ويغير مجراه. وإذا حفر شخصٌ في الأرض قليلا فترك الماءُ مكانَه واستقرَّ في هذه الحفرة.



ولما كان في خميرة الإنسان أيضا الماء، لوجود البصاق واللعاب والبلغم والبول والعرق وغيرها فيه، لذلك لا يوجد في الإنسان أيضا أثر لضبط النفس جبليا، رأى شيئا جميلا شهق له. وقع بصره على زوجة لأحد حدَّق فيها. رأى شيئا مقبول الصورة تبعه. رأى عمارة جميلة بدأ ينظر إليها بنظرات طامعة، ليتها تكون له.

فتكسُّر الإنسان وتشتُّته عند مواجهة أيِّ تنزُّلٍ أو انخفاضٍ في حياته، جاءه من عنصره المائي، وحاصله هو نفس ذلك الاحتياج والعجز؛ فعدمُ تملُّكِه ناصيةَ نفسِه عند رؤيته غيرَه مضاهيا له في عمله أو علمه، وفقْدُه صوابَه ورشدَه عند ذلك، دليلٌ على عجزِه وعدمِ قدرته، والعجز أصل الاحتياج. وأما ضبط النفس وتملكها عند رؤية الأشياء الجميلة والاستغناء عنها، وصون النفس من السقوط عليها، هذا كله دليل قدرته، وحاصله هو ذلك الاستغناء. فثبت من هذا البيان أن خاصية الماء الطبيعية أيضا هي الاحتياج والعبودية.

المطلب السادس: أربعة أصول لرذائل النفس وفضائلها:

1- أربعة أصول لرذائل النفس:

ثبت مما قلنا في السابق أن لهذه الأخلاق المادية أو للرذائل أربعة أصول: القبض والبخل، التعلي والترفع، الشهرة والانتشار، وعدم ضبط النفس أي الحرص وهوى النفس، التي تجعل الإنسان محتاجا في كله.

2- أربعة أصول لفضائل النفس:

إذا عرفنا أصول رذائل النفس، عرفنا تلقائيا أن أصول فضائل النفس تكون ضدها، فضد القبض والبخل هو السخاء والإيثار، وضد الكبر والتعلي هو التواضع والانكسار، وضد الشهرة والسمعة هو الإخفاء والتستر، وضد الحرص والسقوط هو ضبط النفس والقناعة.

ولما كانت هذه الأضداد الأربعة أضدادا لأخلاق المادة الأربعة، فهي لا تكون أخلاقًا ماديةً، بل هي تُعَدُّ أخلاقا روحانية للروح التي هي ضد المادة، وهكذا إذا خرجت من جوهر المادة أربعة أصول لرذائل النفس، فخرجت كذلك من جوهر الروح أربعة أصول لفضائل النفس.

3- عدم إمكانية ظهور الأخلاق بدون الأفعال:

ولكن من الحقائق الواضحة أيضا أن الآثار الجبلية للأخلاق لا تظهر إلا بالأفعال، فإذا لم تصدر أفعالٌ مناسِبَةٌ لتلك الأخلاق لا يمكن أن تظهر الآثار الطبيعية لتلك الأخلاق، فمثلا لا تظهر آثار خُلُق الشجاعة إلا بعد فعل المقابلة والمقاتلة، وكذلك آثار السخاء لا تبرز إلا بفعل العطاء، وآثار التواضع لا تظهر إلا بالخضوع أمام المخضوع له، وهكذا كل الأخلاق، لذلك من الضروري أن لا تظهر آثارُ محتاجيةِ الأخلاقِ الماديةِ، وآثارُ استغناءِ الأخلاقِ



الروحانيةِ، إلا بصدور أفعال مناسبة لكل منهما، فهنا سؤال يطرح نفسه، وهو: ما هي الأفعال التي تظهر بها آثار الأخلاق المادية والأخلاق الروحانية؟

4- مظهر الأخلاق المادية هو الإمساك بالشيء:

كلما تأملنا في آثار الأخلاق المادية فما وجدنا حاصلها غير الأثرة والمطْلَبية، وووجدنا أن أساس البخل والحرص وحب الشهرة والتعلي هو هوى الإمساك بالشيء، فيريد أن لا يكون من مال وجاه في الدنيا إلا له فقط، ففي القبض والبخل يمنع مقبوضه عن الغير، وفي التعلي والترفع يتظاهر بأن كل كمال له وليس لغيره شيء، وفي الشهرة والسمعة لا يذكر إلا اسمه، لا غيره.

5- مظهر الأخلاق الروحانية هو الإنفاق:

ولما كانت الأخلاق الروحانية ضدَّ الأخلاق المادية من كل ناحية، لذلك يلزم أن تكون آثارها الطبيعية أيضاً ضد آثار الأخلاق المادية، وكذلك الأفعال التي تُبْرِز تلك الآثارَ تكون ضدَّ أفعالها أيضا. فلما كان أثرُ الأخلاقِ الماديةِ الأثرةَ، يكون أثرُ الأخلاقِ الروحانيةِ الإيثارَ، وفي السخاء يعطي لغيره ما يملكه، وفي القناعة تُتْرَك ممتلكاتُ الآخرين لهم، وفي التواضع يُضحّي الإنسان بعزَّتِه للآخرين، وفي الإخفاء يُترَك الميدانُ بأكمله لعزة الآخرين.

عرفنا أن أساس جميع هذه الأخلاق الروحانية ليس على المنع أو السلب، بل على العطاء والوهب، فاتضح من هذا أن الفعل الذي يبرز آثار هذه الأخلاق الروحانية لا يكون فعلَ الإمساك أبداً، وإنما يكون ضده وهو فعل الإنفاق، الذي يسمى في اصطلاح الشرع الصدقة، التي معناها في الحقيقة هو إنفاق وإعطاء الروح والمال والعِرْض والقول والعمل لمالك الملك، ثم لما تُتْرَك في الصدقة محبوباتُ النفس ولذائذُ الطبع الذي هو شاق على النفس، لذا يسمى أيضا باسم آخر وهو المجاهدة.

فخلاصة الأمر أن الإمساك الطبيعي يأتي بالاحتياج والضيق، ولا يذهب ذلك الإمساك، ولا يحلُّ محلَّه الاستغناءُ، إلا بواسطة الصدقة والمجاهدة والإنفاق في سبيل الله، فدرجة الإنفاق التي تقع في مقابل الإمساك تذهب على قدرها من النفسِ الإنسانيةِ المحتاجيةُ والعبديةُ، وتتحقق مراتب الاستغناء؛ لأن بالإنفاق تضمحل وتضعف تلك الأخلاق المادية التي كانت تظهر بها أفعالُ الإمساك.



6- كيف يمكن أن يحصل الغنى بالصدقة؟:

عندما يتصدق الإنسان بمال له فيُبعِده عن نفسه، فهو بذلك يقطع أساس القبض والبخل الذي هو خُلُق ترابيّ، وكلما تضعف رذيلة القبض والبخل التي هي أساس الاحتياج، تقوى على قدرِ ضعفِ تلك الرذيلةِ ملكةُ السخاء والإيثار التي هي ذريعة الاستغناء، وبهذا أدرك ذلك الإنسان المتصدق المقامة الأولى للاستغناء

وحينما يشعر هذا المتصدق بلذة العطاء والتصدق، فلا ينظر إلى أشياء الآخرين طمعا وحرصا، بل لا معنى عطائه وتصدقه إلا أنه راغب في إرضاء النفس بأقل ما يمكن، وهذا الذي يسمى "القناعة". فبهذه الصدقة والإنفاق قُضِيَ أيضا على خُلُق الحرص الذي هو خلق مائي، ونال به المقامة الثانية للاستغناء.

والفرق بين مقامتي الاستغناء هو أنَّه في المقامة الأولى قُطِع حبُّه ممتلكاته الذي كان أساس البخل، وفي المقامة الثانية ذُهِبَ بحبه لممتلكات الآخرين الذي هو أصل الحرص، وهكذا فك الإنسان نفسه في باب المال من عبدية نفسه، وعبدية غيره.

ولما تصدق الإنسان بماله سِرًّا وإخفاءًا، قُطِعَ أساسُ حبِّ الشهرة والسمعة الذي كان خُلُقا هوائيا، وبه حصلت للإنسان المقامة الثالثة للاستغناء.

والمتصدق لا يخفي عمله هذا إلا إذا رأى أن عمله أقل قيمة من عمل الآخرين، ولا يجد في نظره أي علو وتفوُّق لعمله هذا في مقابل أعمال الآخرين، وقَطَعَ به أصلَ التعلي والترفع الذي هو خلق ناري، وبهذا فاز الإنسان بالمقامة الرابعة للاستغناء.

والمبالغة في إخفاء عمل الخير مطلوبة في الشريعة الإسلامية، بحيث لا تعلم شماله ما تنفق يمينه؟ ومن أعطاه؟ كأنه أخفى عن نفسه هو أيضًا، وهذا يعني أن ضميره أيضا لا يحس بأي فخر ونخوة، وهو بهذا كأنه لا يتخيل في نفسه أنه أعلى وأرفع من الآخرين، بل يفعله فقط أداءً للواجب، لا أداءً للحق، وبهذا الإخفاء التام للصدقة استؤْصل حب الذات والعجب بالنفس، الذي يحصل به المتصدق على أدقِّ وأهمِّ مقامةٍ للاستغناء.

والمقامتان الأُوْلَيان للاستغناء تصونان الإنسان من احتياجاته للمال، والمقامات الثلاث الأخيرة تحرِّره من احتياجاته للجاه، والفرق بين هذه المقامات الثلاث هو أن المتصدق بعد وصوله إلى المقامة الأولى لا يكون طالبا للجاه، وفي المقامة الثانية لا يبقى كاسبا للجاه، وفي المقامة الثالثة لا يمسي متخيلا للجاه. وهكذا -بتحرير الإنسانِ نفسَه بواسطة هذه المقامات الخمس من الاحتياجات والقيود التي كانت قد ألقته في حضيض الذلة والصغار- يصبح



الإنسان غنيا عن الغير، ومستغنيا عن نفسه أيضا، ففي هذه الحالة إذا نشأت له علاقة فتنشأ مع الله الغني عن العالمين، الذي ليس محتاجا في أعماله إلى أحد، بل كل شيء محتاج إلى مدده تعالى وعونه.

7- لا تظهر الأعاجيب الروحانية وخوارق العادات إلا بقوة التعلق مع الله تعالى:

وفي هذه الحالة، من الضروري أن يَظهَر الغنى الكاملُ من هذا الإنسانِ المتصدِّقِ والعبدِ المجاهدِ وتاركِ ما سوى الله، الذي أوجَدَ نسبتَه مع ذلك الغني المطلق، ولا يحتاج في أي عمل من أعماله إلى الوسائل المخلوقاتية، بل هذه الوسائل نفسها أخذت ترمق إلى إشارات عينيه، وبدأت تصل تصرفاته -لا إلى الأرض فقط- بل إلى السماء أيضا بدون وسائل مادية، فإذا ذهب إلى الأعلى فلا يحتاج إلى طائرات، وإذا قطع مسافات أرضية فلا يحتاج إلى قطارات وسيارات، وإذا أوصل صوتَه إلى العالَم فلا يحتاج إلى هواء وبرق، وإذا أراد أن يسمع نداءات العالَم فلا يحتاج إلى راديوهات وتليفونات.

8- لا يمكن أن يولِّد العلمُ الحديثُ المجرَّدُ هذا الغنى:

ولما ثبت أن موضوع العلم الحديث ومجال عمله هو التصرفات المادية التي ثمرتها هي الاحتياج وذلة النفس، وأن موضوع الإسلام ومجال عمله هو التصرفات الروحانية أي الصدقة والمجاهدة التي يحصل بها الاستغناء وتواضع النفس، فنتج عن ذلك تلقائيا أن العلم الحديث يذهب بالإنسان إلى الذلة والهلاك، والإسلام يذهب به أخيرًا إلى العزة وفلاح الدارين.

الصورة الأولى -أي الغلو في الماديات والمبالغة في العلم الحديث- هي دَوْسُ الروح وغلبة المادة، التي يعز بها الذليل، ويذل بها العزيز، وهذا قلب الموضوع، وموجبٌ لهلاكهما.

والصورة الثانية -أي الاشتغال بالروحانيات والشغف بالإسلام- هي رفع الروح ومحكومية المادة، التي يتبوأ بها العزيزُ مقعده من العز، والذليل يبقى على مقعده من الذلة والمقهورية، وهذا هو عين العدل، وموجب لفلاحهما ونجاحهما في الدرين.

وهذه هي الخطة الإجمالية للعلوم والإسلام، التي تقدمت بها إليكم على قدر علمي، وهذا هو المقصد الأول من المقاصد الثلاثة لهذا الخطاب.

المطلب السابع: العلاقة بين العلوم والإسلام كالعلاقة بين الوسيلة والمقصود:

1- البدنَ المكوَّنَ من العناصر الأربعة وسيلة لعمل الروح:



إن البدنَ المكوَّنَ من العناصر الأربعة مجردُ هيكلٍ، وحياتُه بالروح، والروح تُظْهِرُ علومَها وكمالاتها بواسطة هذا البدن الحي بها، فالبدن وسيلةٌ لظهور كمالات الروح، فإذا أُعْطِيَ هذا البدنُ درجةَ المقصودية بالذات، فكأن الجثة جُعِلت مقصودةً، ومصير الجثة ليس سوى التعفن والتفسخ، ولما كان موضوعُ العلومِ هذه الجثةَ والأشياءَ الماديَّةَ، التي مصيرها الفساد والتعفن وتلويث الأدمغة، فانحلَّ تلقائيا أن أعمال العلوم كلها ليس لها قيمةٌ أكثر من قيمة الوسائل، ولما كان موضوعُ الإسلامِ -بالأصالة- الروحانيةَ والأفعالَ الروحانية، والروح أصلٌ، اتضح أتوماتيكيًّا أن جميع أمور الإسلام لا تنزل عن درجة المقصودية بالذات في أي حال من الأحوال.

فبعد ضمٍّ هاتين الصورتين بعضهما إلى البعض نتج أن البدن كما هو وسيلة لعمل الروح كذلك العلومُ وسيلةٌ وذريعةٌ لأعمال الإسلام، التي حياتُها وروحُها هي الأخلاقُ الإسلامية والأفكارُ الإسلامية والأقوالُ الإسلامية والأفعالُ الإسلامية، فإن لم توجد هذه الروح في الهيكل فتصبح العلوم وتشكيلاتها جثَّةً لا يكون مصيرها إلا انتفاخًا وتفسُّخًا، وتشتيتًا للأدمغة الصحيحة والقلوب الصادقة، وتلويثًا للفضاء النقي الصافي.

فالعلوم التي حاصلها رغادة العيش المحضة واستعمال خزائن العناصر الأربعة بلا روح دينية، والذي يقال له في الاصطلاح "حياة الدنيا"، وجثة بلا روح، جثَّةٌ ترابية هامدة بعد أن بهرت العيونَ ببريقها وزينتها أياما معدودات، يحبها ويتهافت عليها الذين هم عميٌ عن الحقيقة، يقول الله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً﴾ [الحديد:20]. والعيش الرغد غير الضروري وجمع الوسائل اسمه في الإسلام هو "الدنيا"، وعاشِقُها يقال له: "أحمق"، قال النبي ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ولها يجمع من لا عقل له»[8].

فاتضح حسًّا وعقلاً ونقلاً أن الجسمَ والمادة كما هو وسيلةُ عملٍ للروح، لا مقصود أصلي، كذلك التصرفات المادية التي اسمها "العلوم" يمكن أن تكون مجردَ وسيلةٍ وذريعةٍ للتصرفات الروحانية التي اسمها "الإسلام"، ولن تصبح مقصودة بالذات، فالانهماك في العلوم بعيدا عن المقصود الأصلي "الدين" لا يُعَدُّ فعلا عقلانيا، بل اختيارها وسيلةً وعلى قدر الضرورة يعدُّ فعلا عاقلا. ولذلك أُذِنَ للتحصيل من دنيا العلوم وتصرفات مجموع العناصر الأربعة على لسان النبي

[8] رواه أحمد في **مسنده**، ج6، ص71، رقم24464. قال الهيثمي في **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، ج11، ص196، رقم18078: "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير دويد وهو ثقة".



ﷺ ما تحتاج إليه المقاصد الدينية، حيث يقول ﷺ: «اعمل للدنيا بمقدار بقائك فيها، واعمل للآخرة بمقدار بقائك فيها»[9].

2- ماذا تقتضي منا حقائق العلوم والإسلام؟:

لذلك يجب علينا أن نعرف مجال تقدمنا ورقينا ما هو: العلوم أم الإسلام؟ ثبت عقلا ونقلا أن العلوم وسيلة، لا مقصود أصلي، فلا يمكن أن تجعل العلوم -مطلقًا- ميدانا للترقي والتقدم. وثبت أن الإسلام مقصود أصلي، فهو الذي يُجْعَل ميدانا للجري والترقي؛ لأنه ليس طريقا محضا، وإنما هو مدينة مطلوبة، لذلك لم يوقف القرآن رقي الإنسان، بل أرسل اللهُ الإنسانَ إلى الدنيا لتعميرها وترقيتها، ولكنه سَمَّى الترقيَّ في الوسائل تضييعًا للوقت، والترقي في المقاصد -الذي عنونه بالخيرات والبركات- أوجبه علينا. يقول تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة:148]. وقال: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين:26].

ولكن الإنسان قلب الموضوع قلبًا جعلَ المقصودَ وسيلةً، والوسيلةَ مقصودًا، والملِكَ عبدًا، والعبدَ ملِكًا، والإسلام تابعًا، والعلوم مقصودًا حقيقيًّا، التي سوف تُرْدِيه في الحفرة العميقة للحرمان والخسران، كما فعلت مع الأمم حتى الآن.

وقد قال نذير الله المبين ﷺ متوجّسا وخائفا من تلك البهرجة المادية وزينتها المزخرفة التي سميت في الشريعة "زينة وزهرة": «والله ما أخشى عليكم الفقر، ولكن مما أخشى عليكم من بعدي زهرة الدنيا تفتح عليكم فتهلككم كما أهلكتهم»[10].

---

[9] لم أجده مرفوعا إلى النبي ﷺ، وإنما أخرجه أبو نعيم في **حلية الأولياء**، ج7، ص56 وصيةً لسفيان الثوري لأحد، فقال: حدثنا أبو أحمد، ثنا أحمد بن محمد بن الحسن، ثنا عبد الله بن خبيق، ثنا عبد الرحمن بن أبي عبد الرحمن بن عبد الله البصري قال: "قال رجل لسفيان: أوصني. قال: اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، وللآخرة بقدر بقائك فيها، والسلام". وروى ابن أبي الدنيا في **الزهد**، ج1، ص477، رقم475 و**ذم الدنيا**، ص79، رقم386 فقال: حدثني علي بن الحسن بن أبي مريم، عن الحسين بن زياد المروزي، قال: قال معدان: "اعمل للدنيا على قدر مكثك فيها، واعمل للآخرة على قدر مكثك فيها".

[10] لم أجده بلفظ الشيخ. وروي فيه عدة أحاديث، منها: حديث عمرو بن عوف أن رسول الله ﷺ قال: «... فو الله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم» رواه البخاري في **صحيحه**، كتاب الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب، ج3، ص1152، رقم2988؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الزهد والرقائق، بدون باب، ج4، ص2273، رقم2961؛ والترمذي في **سننه**، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب رقم28، ج4، ص640، رقم2462. ومنها حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «أخوف ما أخاف عليكم، ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا» قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال: «بركات الأرض ...» رواه مسلم في **صحيحه**، كتاب الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، ج2، ص727، رقم1052.



3- أضرار الماديات المحضة:

إن أضرار الماديات أنها ترسِّخ قدمها في ميدان العلم أولاً، فتُفْسِدَ على الناس اعتقادَهم، ثم تحتلُّ ميدان العمل، فتقضيَ على عزيمة الناس للعمل، بحيث إن الماديات لا شعور لها؛ فلا يملك واحد من العناصر الأربعة النار والماء والهواء والتراب شعورا، وإلا فلا يكون مسخَّرًا بيد الإنسان.

ثم لما كانت هذه الماديات أنواعا للمحسوسات لذا لا يستطيع المولعُ بها وأسيرُها الإنسانُ أن يصل إلا إلى أعماق الحس فحسب وأسراره، وإلى ما يتعلق بالحواس الخمس: العين، والأنف، والأذن وغيرها، لذلك عبَّاد العيون والأذن لا يدورون إلا ما تشاهده العيون وتسمعه الأذن، ولا يستطيعون أن يصلوا إلى علوم القلوب، وعلوم الأرواح، وعلوم الحقائق أبدا، ومن الواضح جدا أن العلم الذي لا يعرف عنه الإنسان شيئا، ومع ذلك يتوجه إليه، فلا يكون مبلغ علمه إلا أوهاما وخيالات وشكوكا وشبهات، ولا يكون علوما ومعارف أبدا، لذلك تَحْدِق بالإنسان المادي الشكوكُ والشبهاتُ في الميادين الروحانية، التي هي في الحقيقة ثمرةٌ بسيطةٌ للانهماك في الماديات، وليس علاجُه إلا أن يرجع إلى الروحانيات التي هي منشأ العلوم والإدراكات، ويُشعَل في القلب مشعلُ العلم الذي تبتعد به ظلمات هذه الأوهام والوساوس.

4- موعظة لطلبة الجامعات:

إن المسلمين عامة، وطلبة الجامعات خاصة، يحملون عقليةً حداثيةً خاليةً عن تلك الأنوار العرفانية مطلقا، التي كانت تمثِّل ترياقًا للشكوك والشبهات، وجُنَّةً للوساوس والأوهام، مما رسَّخ الريبَ والارتيابَ والتحيرَ في القلوب، وجعلها أجنبيةً عن الحقيقة الأصلية، وإذا لم تدخل في القلوب أنوارُ الإيمان الشفافة التي كانت تنقشع بها ظلمات الجهل، وتندفع بها الشبهات الناشئة عنها، وتصبح بها تجليات مشاهدة الحق جوابا عن كل سؤال، فلا فائدة في مراودة القلوب ودغدغتها بالتعبيرات العلمية المحضة. وإيجادات العلم التي تريدون سماعها في مثل هذه الخطب الرنانة هذا ليس وقته، وإنما وقته حين يكون رأس مال العلم الأصلي باليد، أما هنا فلا خبر للإيمان، ولا رائحة للروحانية، فكيف الوصول إلى العمل؟!

5- طرق دفع الأضرار المادية:

لذلك أنا أشير عليكم، بل لست أشير، وإنما حقيقة الإسلام أيضًا تقتضي منكم أن تتركوا تزيينات الظاهر هذه وتلميعاته، وتضميداته تلك وترقيعاته، وتُنَقُّوا من تلك المادة ذلك الفساد الذي أوجده فيها الانهماك الزائد والغلو المفرط في العلوم المادية، وسقاه علم الفلسفة الذي هو جهلٌ في الحقيقة، ففي هذه الحالات والظروف يجب عليكم



أن تبرزوا الروح بدلا من الجسم، التي هي منبع العلوم في الإنسان، الذي حلقته الأولى أن يبتعد عن هوى النفس والشهوات المادية، ويرجع إلى منبع الجود والكمال ذات الحق تعالى، الذي تأتي منه أضواء العلم والمعرفة، وتُضَيِّق على الشكوك والوساوس مداخلها ومنافذها.

6- استحكام التوحيد ورسوخه:

استحكام التوحيد ورسوخه، وبلفظ آخر: تركُ تعدُّدِ المطالب والشرك، واختيار الاستقامةِ على التوحيد، الذي هو روح الإسلام وأصل الأصول، وطريقته أن يُذْكر الله مرات وكرات، ليقع وقْعُه على القلب ويترسخ التوحيد. يقول النبي ﷺ: «جدِّدوا إيمانَكم بقول لا إله إلا الله»[11].

ولا تَصَوَّرْ في "لا إله إلا الله" توحيد الذات فحسب، بل تخَيَّلْ في هذه الكلمة أيضًا التوحيدَ (المطلق الذي يشمل توحيد الذات والصفات معًا) أي كما اكتسبتَ بهذه الكلمة توحيدَ الذات، كذلك حاوِلْ أن تكتسِبْ بها توحيد أسماء الله المائة أو صفاته المائة أيضًا[12]، كأن إثبات الألوهية ونفيها كامنان في تركيبة كلمة التوحيد، فيُثْبَت ويُنْفى أيضا الرحمانية والنافعية والضارِّية وغيرها هكذا: لا رحمن إلا الله، لا مالك إلا الله، لا نافع إلا الله، لا ملك إلا الله، وغيرها.

فلمَّا يستقرُّ في الذهن أن المالك أيضا هو الواحد، والنافع أيضا هو الواحد، والضار أيضا هو الواحد، تظهر ثمرته تلقائيا، وهي أن تذهب من قلبه عظماتٌ أخرى، وتبقى فيه فقط عظمة الذات الواحدة، وهذه الوحدة والوجهة الواحدة هي قوة القلب، ومن الواضح أن عبدا واحداً لا يستطيع أن يُرْضي سيدين له في وقت واحد، هو دائمًا يكون مشتت البال، متفكر الخاطر، متردد الفؤاد، ومذبذب العقل، مما يُحْدِث في قلبه ضعفًا، ولكن الإنسان الذي يؤمن بأن سيده واحد فقط، وهو مالك الكل على الإطلاق، وبيده كل شيء، وهو متصرف فيه، فهو لا يكون

---

[11] أخرجه أحمد في **مسنده**، ج2، ص359، رقم8695؛ وعبد بن حميد في **منتخبه**، ص417، رقم1424؛ وابن الأعرابي في **معجمه**، ج3، ص109، رقم1108؛ ومحمد بن نصر المروزي في **تعظيم قدر الصلاة**، ج2، ص787، رقم799؛ وأبو نعيم في **الحلية**، ج2، ص357؛ والحاكم في **المستدرك**، ج4، ص285، رقم7657 بأسانيدهم عن صدقة بن موسى، ثنا محمد بن واسع، عن شُتَيْر [أو سمير] بن نَهَّار العبدي، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ:= =«جددوا إيمانكم». قالوا: يا رسول الله! وكيف نجدد إيماننا؟ قال: «أكثروا من قول لا إله إلا الله». قال المنذري في **الترغيب والترهيب**، ج2، ص268، رقم2352: "رواه أحمد والطبراني، وإسناد أحمد حسن". وقال الهيثمي في **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، ج1، ص58، رقم159: "إسناده جيد، وفيه سمير بن نهار وثقه ابن حبان". وقال الحاكم: "صحيح الإسناد". وخالفه الذهبي فقال: "صدقة ضعيف".

[12] قلت: ولله تسعة وتسعون اسما، وليس مائة كما جاء في حديث أبي هريرة عند البخاري في **صحيحه**، كتاب الدعوات، باب لله مائة اسم غير واحد، ج5، ص2354، رقم6047 عن أبي هريرة رواية قال: «لله تسعة وتسعون اسما مائة إلا واحدا، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر».



مترددا بل يصبح متيقنا ومطمئنا، وهذا اليقين والطمأنينة أساس قوة القلب، تتركز بها قوَّتُه الفكريةُ على مركز واحد، وتظهر بعد ذلك على يديه أعاجيب الفكر وغرائب العلوم، وتزيد في بصيرته ومعرفته.

وبهذه القوة اليقينية صدر ما صدر من الصحابة الكرام والسلف العظام من أعمال محيرة للعقول، وتحيَّر بها العالَم المتمدن حتى يومنا هذا، ولم يكن تقدمهم المدهش وأفعالهم الطوفانية رهينة بالغنى المالي، ولا بالغنى العقاري، بل الغنى ذاته كان يأتي بتلك الأفعال ويذهب، لذلك صحِّحوا اعتقادَكم في التوحيد الذي هو أساس كل خير وكمال.

7- ذكر الله وطريقته الابتدائية السهلة:

وهذه الفكرة التوحيدية لا تترسخ في القلب ولا تثبت إلا بطمأنينته، وإلا فلا تدَعُك الوساوسُ والتشويشاتُ الفكريةُ أن تبقى على هذه الحقيقة الصافية النقية، ولذلك وصف القرآن الكريم وَصْفَةً لإحداث الطمأنينة في القلب، قال: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:28].

المقصود بالذكر في الآية هو الذكر القلبي، وهو لا يترسخ في القلب إلا بتكريره باللسان مرات ومرات، كما يكرر الطالب درسه باللسان ليحفظه في صدره، لذا اجْعَلِ اللسانَ ذاكرًا أولا، فيصير القلب ذاكرًا ثانيًا، ويتجذر هذا الإيمان والتوحيد في القلب، ويطمئن عليه الفؤاد ويقتنع.

ولذلك ذكرت الشريعة الإسلامية عدة صور لذكر الله تعالى، ولكن للأسف الشديد لا استعمال لها في هذه الأيام، وحتى لا يعلمها المسلمون عامة، والطبقة المثقفة منهم خاصة، فأولا فرضت الشريعة علينا فرائضَ، وهي أكبر مَظهرٍ لذكر الله، فرضها على كل مسلم، فالتزموا بأداء الفراض من الصوم والصلاة وغيرهما، وكذلك وضعت الشريعة في مختلف المناسبات والمواقع أورادًا تتضمن ذكر الله، فبنطقها يجري على اللسان ذكر الله تلقائيا، مثلا: بِسْمِ اللهِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ، جَزَاكَ اللهُ، إِنَّا لِلَّهِ وإنا إليه راجعون، مَا شَاءَ اللهُ، إِنْ شَاءَ اللهُ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، سُبْحَانَ اللهِ، وغيرها من الأوراد التي تلهجون بها ليل نهار، فإن استعملتموها فيحصل لكم الاستغناء عن لغات الأغيار، وما من عمل من أعمال حياتكم التي لها علاقة بالكلام إلا وفي تعبيراته اسم الله، كأن العائش في المجتمع الإسلامي مدفوع بنفسه إلى ذكر الله تعالى بدون قصد وإرادة، ولكن مسلم اليوم لا يبالي بلغته الدينية التي كان الله يوفقه بها لذكره كل وقت بالإرادة وبدون الإرادة، هو بصدد محوها، مع أن الإسلام كان قد أكد تأكيدا بالغا للمحافظة على اللغة العربية وتعبيراتها؛ لأن للُّغة أثرًا في صنع الثقافة والحضارة، وعامة أحوال الحياة، لذلك في بداية الاحتلال الإنجليزي للهند وجَّه علماء الهند عامة، وعلماء دارالعلوم ديوبند خاصةً، المسلمين إلى أن لا يُعِيْرُوا -مع المحافظة على عربيتهم- للغة الغير وترويجها وإشاعتها اهتماما كبيرا بحيث تصبح هي قلبتهم الأولى ومقصودهم الأصلي، ولكن المسلمين آنذاك ما سمعوا نداء أولئك العلماء



المتبصِّرين، وما أصغوا إليه، ونتيجةً لذلك هم تعرضوا لسوء عاقبته، من أنهم تغيروا صورةً وسلوكاً في مجتمعاتهم التمدنية والحضارية، ولم يبق عندهم من الإسلام شيء، فضلا عن بقاء عملهم الديني على صبغته الأصلية.

ولكن التوبة والرجوع إلى الرشد ليس له وقت مخصوص، فتوبوا وارجعوا إلى ذكر الله، وإن لم يمكن لكم أن تلتزموا اليوم بذكر الله التزاما تاما، فعلى الأقل اسعوا للحفاظ على اللغة العربية من حيث إنها لغة، واحفظوا تعبيراتها الدينية، ليجري بذلك على ألسنتكم ذكر الله، النطق باسم الله ولو كان بدون إرادة، ولكنه يترك أثرا له في القلب.

8- صحبة الصالحين والتعلق مع أهل الله:

ولكن التوفيق لهذه الأمور لا يتسنَّى إلا أن تُجْمَعَ معها أسبابُ التوفيق، وأكثر الأسباب تأثيرا هو مصاحبة الصادقين ومرافقتهم، لذلك قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:119].

لذلك، الجاهلُ المصاحِبُ لأهل الله يفهم مقاصدَ الدين أكثر من العالم غير المصاحب، ويصطبغ بالصبغة الدينية، ويصبح متبعا للدين، لذلك أنا أنصحكم بأن تجعلوا الصلة مع أهل العلم والربانيين مقصدا أصليا لحياتكم؛ إذ لا يثلج الصدرُ بالاستدلال فقط، ولا تقر العين باليقين العقلي فحسب.

ولله در الشاعر الهندي "أكبر" يقول (ما ترجمته):

لا يجد الفلسفيُّ اللهَ في بحثه وحجته   يبحث عن رأس الحبل المتشابك ولا يجده

ثم يقول في حصول اليقين وتدبير الدين (ما ترجمته):

لا يأتي الدين بالكتب والمواعيظ والذهب   وإنما يأتي الدين بنظر الربانيين الصائب

لذلك أنا ألتمس منكم أيها الإخوة الأعزاء! أن لا تبتعدوا عن أهل الله، بل أحدثوا فرص ربطٍ بهم، ليحصل لكم الدين واليقين، وتذهب عنكم الشكوك والشبهات، وإلا فلا تصلح النفوس بمثل هذه الخطب الرنانة ولا سيما في مثل هذه المسائل الكلية التي تشتمل على حقائق علمية، وإنما تصلح النفوس عندما تكون القلوب معمورة بذوق اليقين، ولا تصطبغ بصبغة الدين إلا بقوة العمل وصحبة الصلحاء، لذا أوجبوا على أنفسكم ألا تنسوا الروحانيات في خضم الماديات.

9- خلاصة الكلام:

اتضح من الكلام السابق حقيقة الإسلام وغرضه وغايته، أي أنه بحثِّه الإنسانَ على السعي في ميدان الروحانية يريد أن يوصل الإنسان في الرفعة والعزة والطمأنينة والبشاشة إلى أوجها الدائم، وإلى قمَّتها الشامخة، وذلك لأن الرفعة والعزة الدائمتين ليستا إلا في الروحانية. وتبين من البيان السابق حقيقة العلوم وغرضها وغايتها أيضا أي أنها بتشغيل



الإنسان في الميادين المادية تدفعه إلى قعر الذلة والخسران، وذلك لأن مصير الماديات المحضة هو الفناء والهوان، وفي آخر الأمر لا يستطيع الإنسان المغرور بالعلم الحديث أن يحافظ على منافعه المادية، ولا أن ينال منافعه الروحانية أيضا، واتضح كذلك النسبة بين العلوم والإسلام، وهي أن بينهما نسبة الوسيلة والمقصود، التي حاصلها أنه لا يكون مصيرها مبشرا بالخير، إلا إذا كان أفعال العلوم خادمة للمذهب، وذريعة للحصول عليه.

واتضح أيضا أن الإسلام لما كان مقصودا بالذات، والعلوم وسيلة له، تقتضي مقصودية الإسلام أن يُجْعَل الإسلامُ ميدانا للترقي والتقدم، لا العلوم؛ لأن الترقي يكون في المقاصد لا في الوسائل والذرائع، أيْ تُخْتَار معمولات العلوم على قدر حاجة الإسلام إليها فقط، لا أكثر.

المطلب الثامن: الربط بين مباحث الخطاب وحديث العنوان:

هذه هي المقاصد الثلاثة التي وعدت في بداية الخطاب بشرحها في ضوء حديث العنوان، فأحمد الله تعالى على أني قد شرحتها نوعا ما، وأريد الآن أن أختصر المباحث الطويلة لتلك المقاصد الثلاثة وأطبقها على هذا الحديث، وأبين أن جميع التفصيلات التي ذكرتها هي في الحقيقة شرحٌ لعدة جمل جامعة وبليغة في الحديث، وهي مستنبطة من تعبيراته، فقد جاء في أول الحديث ذكر العناصر الأربعة جوابا عن سؤال الملائكة، التي هي مادة العالَم وأصل مواليدها الثلاثة (الحيوانات، والجمادات، والنباتات)، التي خُلِقَت منها هذه الدنيا.

ثم جاء ذكر هذه العناصر الأربعة في الحديث بأسلوب بليغ، حيث ألقي فيه الضوء الكافي على مراتب كل منها في الشدة والضعف، فالتراب أضعف العناصر، ثم الحديد –الذي هو أيضا من أجزاء الأرض– أقوى منه، والنار أقوى منه، والهواء أقوى منها، واستمر هذا البيان إلى قوله: «نَعَمْ، الريح».

وبعد ما انتهى عن ذكر هذه العناصر المادية، انتقل إلى بيان أعلى المواليد الثلاثة وهو الإنسان، وذكر بقوله: «نَعَمْ، ابن آدم» أن الأشد والأقوى من جميعها هو الإنسان، وكذلك وضحتُ في السابق بذكر الأفعال التي يمارسها الإنسان في تلك العناصر، أن الإنسان هو ذلك النوع الذي تتسارع لتلبية حاجاته كلُّ العناصر، وكلُّ المواليد.

ثم انتقل الحديث الشريف من هذه الماديات إلى الروحانيات، وذكر أن ابن آدم ليس أقوى وأشد على الإطلاق، وإنما بشرط أن يكون روحانيا، ولا يبقى ماديا، أي يترك الماديات، ذكره في قوله: «تصدَّق بصدقةٍ»؛ لأن الصدقة "ترك ما سواه" أو "ترك الماديات".

ثم انتقل الحديث من الروحانية، متوجهًا إلى بيان أعلى مقامات الروح الذي هو التجرد الخاص، والبراءة عن الغوائل النفسانية، والنزاهة عن كثافة الأخلاق، ثم التحلي بلطافة الأخلاق، وذكر أن تصدق الإنسان فقط أو الانقطاع عن



الماديات لا يعني شيئا، ما لم يتزود بالإخلاص، ولم يتخلَّ عن الرياء، وهذا الذي سُمِّيَ "إخفاء الصدقة"، الذي ذكر في الحديث بقوله: «يخفيها»، أيْ المتصدِّقُ المحضُ يُصبح أقوى وأشد منه المتصدقُ المخلصُ الذي لا دخل للرياء في صدقته، كأن تكون هذه الصدقة وترك الماديات حسبةً لله، ويصير هذا المتصدق يتصدق وهو روحاني، لا مادي.

ثم ذكر أن إخفاء الصدقة عن المخلوق ليس كافيا لقوتها وشدتها، ما لم يُخْفِ عن نفسه أيضا، أعني لا يشوبها عجب النفس، ولا حب الذات، ولا يعتبرها في نفسه شيئا يُذْكر، كأن المتصدق إذا تصدق ربانيا، لا نفسانيا، فيصبح أقوى وأشد من كل من العناصر الأربعة، ومواليدها الثلاثة، وجميع الإنس، وجميع الناس المتصدقين، وجميع المتصدقين المخلصين غير المرائين، وإلى هذا المقام أشير في لفظ: «يخفيها من شماله»، أعني تكون الصدفة مخفية بحيث لا تعرف شماله ما أنفقته يمينه، ومن أنفقتْ عليه.

ثم من الظاهر أن الإنسان بهذا الشأن التام للاستغناء والترك لم يترك الدنيا فحسب بل ترك نفسه أيضا، ولما لم يفعل ذلك رياءًا للدنيا، ولا للنفس، فثبت أنه لم يفعل ذلك إلا لله سبحانه وتعالى، وكونُها لله مَنَحَ ذلك الإنسانَ المتصدقَ ضعيفَ البنيانَ قوةً سخَّر بها سائر الماديات وعناصرها ومواليدها، مما اتضح به وضوحًا تامًّا أن القوي المطلق والشديد المطلق في الحقيقة هو الله سبحانه تعالى، وأن كل قوةٍ و كلَّ شدةٍ تكمن في السعي إليه وإيجاد النسبة معه. وقد أثبتنا في السابق أيضا مستفيدا من ترتيب الحديث أن القوة والطاقة تكون على قدر اللطافة، فثبت أيضا بدلالة الحديث أن الله الذي هو مخزن القوة والطاقة هو مخزن اللطافة اللامحدودة أيضا، وهذه اللامحدودية هي أن لا تراه الأبصار أيضا ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:103].

ولذلك ثبتت بالحديث أيضا هذه القاعدة القائلة بأن "لا قوي ولا متين إلا الله"، ثم من ينشئ المناسبة معه يصير قويا بقدر تلك المناسبة. وطريقة إنشاء المناسبة مع الله هي الابتعاد عن الماديات، والتوجه إلى الروحانيات، عن طريق التصدق، ولما كان المتصدق المخلص الخالي عن عجب النفس والرياء ينشئ مناسبة كاملة مع الله لذا هو حامل اللطافة الكاملة، وأقوى من كل إنسان في العالَم.

النتائج اللطيفة لمباحث الحديث:

رتَّب الحديث الشريف محتوياته ترتيبا رائعا، حيث إنه ذكر أولا كل كثيف، ثم كل لطيف، ثم جعل كلَّ مذكورٍ مؤخرًا أشد وأقوى من المذكور مقدَّمًا، فثبت من هذا البيان المرتب أن معيار الشدة والقوة ليس إلا وصف اللطافة، وترتيبه الطبيعي لا يتحقق إلا بأن يكون الألطفُ من التراب الحديدَ، ومن الحديدِ النارَ، ومن النارِ الماءَ، ومن الماءِ الهواءَ، ومن الهواءِ الإنسانَ، ومن عامة الناسِ الإنسانَ تاركَ الدنيا، ومن عامة التاركين التاركَ المحضَ والزاهدَ غيرَ المرائي الذي



قلبه أطهر من شواغل الدنيا، وأرفع من حب الماديات، وأنفر من الكثافات المادية، ومحور اللطافات الروحانية، كأن لا يكون حامل اللطافة الكاملة إلا الإنسان الروحاني الرباني، الذي لا ينهمك في خدمة البدن، بل ينشغل بتكميل الروح، وتصبح الأعمال الروحانية شعارا له، بدلا من التصرفات المادية.

لطافة الروح في تديُّن الإنسان:

كلنا نعلم أن تعليمَ طرقِ نيل الربانية وأساليب إقامة الشعائر الروحانية من موضوعات الدين، لا من موضوعات العلوم، وبلفظ آخر نقول: إنه لا يكون الألطفُ والأقوى إلا الإنسانَ الذي يكون متدينًا أكثر، بحيث أن يجعل الدينَ كلَّ شيء بالنسبة له، لذلك كما يستفاد من الحديث الشريف معيار القوة والشدة الذي هو اللطافة، كذلك يستفاد منه طريقة اكتساب اللطافة التي هي الدين، الذي يأتي باللطافة بواسطة ترسيخ الروحانية، وهكذا تصبح الروح مَلِكا، الذي هو منصبها الأصلي، والجسم خادما لها، الذي هو منصبه الحقيقي، والنفس كنَّاسًا يكنس بمكنسة التقوى أوساخ السيئات وزبالتها، ولا يسرق ولا ينهب، ويصبح العقل وزيرا يشير على الملك بمشورات مفيدة، ونصائح نافعة، ويكون الوحي الإلهي قانونا ودستورا له يهديه الصراط المستقيم، وهكذا وبحكم الروح المنظَّم ينتشر عدل الروحانية في أطراف العالَم الأربعة، ويحبس اللصوص وقطاع الطريق الذين يثون الفتنة، وينقضون الأمن.

ثم إذا كان البلد آمنا وقويا منظَّما بحاكمه اليقظ، ووزيره العاقل، ودستوره الواضح، فلا يتجرأ الأعداء من الخارج على الهجوم عليه، ولا يعثون فيه فسادا، ولا الخائنون والسارقون من الداخل يتجاسرون على أن ينقضوا الأمن والسلام، يقول الله سبحانه وتعالى في العدو الخارجي أي الشيطان: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:99]. وقال في العدو الداخلي أي النفس الأمارة: إنها تترك العصيان وتتبع القانون، وتصبح بذلك مطمئنة راضية، يقول تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ • ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر:27-28].

أسس الإسلام:

تلخص لدينا مما سبق من المباحث أن العالَم منقسم على قسمين: المادية والروحانية، أو العلوم والإسلام، فأساس الإسلام والروحانية حسب إشارة الحديث على أصلين: أولهما: ترك ما سوى الله الذي عُبِّرَ عنه في الحديث بالصدقة. وثانيهما: الإخلاص الذي عُبِّرَ عنه فيه بالإخفاء.

وحاصل الأصل الأول أن تُخْرِجَ من نفسك حبَّ جميع ما سوى الله من الدنيا، والنفس، وهوى النفس وغيرها التي تُخِلُّ بحبه تعالى. وحاصل الأصل الثاني أن لا يترك ما سوى الله إلا لإرضاء ذلك المحبوب الأوحد الذي خلق الأرض والسماء، لا لحب الذات، ولا للأنانية، ولا للعجب بالنفس، ولا للرياء.



أسس العلوم:

لما كانت العلوم ضد الإسلام، تكون أصولها ضد أصوله تلقائيا، فضدُّ ترك ما سوى الله هو حب ما سوى الله، وضد الإخلاص هو النفاق. وحاصل حب ما سوى الله أن يحب الإنسانُ كلَّ غيرِ الله وكلَّ باطلٍ، ويترك اللهَ والحقَّ، ولما تكون النفسُ أسبقَ في حب غير الله لذلك النفس تكون أولَّ وأحبَّ لديها من كل شيء، ولما كانت النفس تحب كل اللذائذ المادية لذا تكون لدى الإنسان أيضا بواسطة النفس كل اللذائذ المادية أحب، التي اسمها "الدنيا"، كأن حاصل حب ما سوى الله هو حب الدنيا وحب النفس.

وأما حاصل الأصل الثاني "النفاق" فهو أن هذه النفس الجاهلة بسبب عدم معرفتها الحقيقة تُظْهِر أن مقصودها الأصلي هو اللذائذ المادية التي ظاهرها مزين، ومصيرها (باطنها) بَشِعٌ، ولكن لما كانت هذه اللذائذ في حد ذاتها – بسبب عدم تمتعها بأية رفعة وحسن عاقبة– لا قيمة لها عند أهل البصيرة، الذين يرون أمثال هذه النفوس الدنيئة مستحقة للوم واللعن، لذلك تسعى هذه النفوس الدنيئة لإقناع الناس بمعقولية مطلوباتها الخسيسة متستِّرةً بستار الأصول والانتظام، وتُبْرِز جميعَ العواطف النفسانية التي هي خلاف المذاق السليم في لباس الكمالات، محاولة منها لجعل مطلوباتها البراقةَ تلك، ذاتَ قيمةٍ في أنظار الناس.

فمثلا عامة اللهو واللعب والرقصات والأغاني السوقية يقدمونها بعنوان "الفنون اللطيفة"، والفسق والفجور المنظمَيْن يسمونهما الثقافة والحضارة بعد إضفاء الشرعية القانونية عليها، ويعنونون الاستعمار ونهمة الأرض بالتقدم والرقي، وإراقة الدماء بالآلات الحربية الفتاكة وهلاك الإنسانية يسمونها حرب الحق والصدق وإقامة الأمن، ويعبرون عن توفير وسائل الطرب والفسق بإعلاء شأن المجتمع ورفع قدره، فهم بذلك يعبدون النفس وهواها في الحقيقة، ولكنهم تلاعبوا بالألفاظ وسموه بعبادة الحق، وهم يطيعون النفس ومطالبها وسموها بالطاعة الصادقة.

فتخفي هذه النفوسُ الماديةُ أهواءَها النفسانية في واجهات العناوين البراقة، وتسعى لزيادة قدرها وقيمتها في قصَّات الملابس الخلابة، مع أن الحقيقة خلاف ما هي عليه.

ومما لا شك فيه أن حقيقة النفاق ليست إلا أن يكون في الباطن شيء، وفي الظاهر شيء آخر، وأن يكون الباطن وسِخًا، والظاهرُ جميلا، وينخدع به الناظر إليه.

ومظاهر الحضارة المادية الجميلة هذه، عبر عنها القرآن الكريم بالزينة، التي حقيقتها ليست أكثر من أنها في الباطن لا شيء، وفي الظاهر تلميعات سطحية تجعلها خادعة للنظر. يقول الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ



وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران:14].

فجُعِل في هذه الآية الكريمة زينةُ الدنيا عبارةً عن عبودية الشهوات، وحب المال، وأسباب المفاخرة والرياسة، التي خلاصتها الرغبة الجامحة للتكاثر المالي والجاهي، وذُكِرَ أن في النساء والذهب والأرض وغيرها من الأشياء لذةً سطحيةً عاجلةً موقتةً زائلةً؛ لأن باطنها ظلامٌ حالكٌ، ومصيرُ شغفِها كدورةٌ ومرارةٌ؛ ولو صُبِغَت بصبغات غليظة، وكُسِيَتْ بعناوينَ خلاَّبةٍ، حاصلها كلها ظاهر لا حقيقة له، يقال له في اصطلاح الشرع "النفاق".

إذا تأملنا فيظهر أن حقيقة الأصلين للعلوم "حب ما سوى الله، والنفاق" باطلة، فبطلان النفاق واضح جدا لأن معنى الباطل هو أن في ظاهره شيئا كثيرا، وفي باطنه لا شيء، ظاهره لَمَّاع، وباطنه مظلم، ولما كانت حقيقة النفاق أيضا كذلك أيْ ظاهرُه شيءٌ وباطنُه شيءٌ آخرُ، فاتضح بطلانه.

وأما "ما سوى الله" فهو أيضا ترجمة "الباطل"؛ لأن كلَّ ما سوى الله يأخذ وجودَه من الله سبحانه وتعالى، فلا هو قائم بنفسه، ولا موجود بنفسه، لذا لا وجود حقيقةً ولا كمال في ذات "ما سوى الله"، بل يظهر به مجردُ وجودِ الحقِّ تعالى ووجود كمالاتِه، ولما لم يكن وجودٌ لما سوى الله –سواء أكانت النفس الإنسانية، أم المواليد الأخرى، أم العناصر الأربعة، أم الأجزاء الأخرى للكون–، ولكنها موجودة وجودا ظاهراً لا حقيقة له، نتج عن ذلك أن كل ما سوى الله باطل بذاته، «ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[13].

ولما كانت العلوم قائمة على هذين الأصلين الباطلين، أولهما "ما سوى الله" وهو باطل آفاقي، وثانيهما "النفاق" وهو باطل أَنْفُسِيٌّ، تبين منه أن حقيقة العلوم المادية كلها ليست إلا البطلان وحبّ البطلان، ومع ذلك يفتخر بها علماؤها، ويتبجحون بها بحيث ترتج بها الأرض والسماء.

نعم، لو اختير الله فحسب، بدلا من "ما سوى الله" لكان حقًّا، وكذلك لو اختير الإخلاص بدلا من النفاق لكان حقا أيضا، وإقامة العلاقة مع الله بالإخلاص هو الإسلام، فتبين أن الإسلام قائم على أساس الحقِّ الذي لا أثر للباطل فيه، لذلك نحن لا نكون مبالغين إذا قلنا: إن العلوم الحديثة اسمٌ لشغبٍ وباطلٍ لا أساس له، والإسلام اسمٌ لحقيقةٍ ثابتةٍ وحقٍّ، أصله ثابت ومستحكم، وكلمة الباطل لا أساس لها، وكلمة الحق ثابتة على أصلها وراسخة، يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا

---

[13] رواه البخاري في **صحيحه**، كتاب فضائل الصحابة، باب أيام الجاهلية، ج3، ص1395، رقم3628؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الشعر، ج4، ص1768، رقم2256 بسنديهما عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل».

كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25) وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (26)﴾ [إبراهيم].

دفع شبهة:

ولكن لا يفهم من كلامي هذا أني أمنع الناسَ عن العلوم الحديثة بذاتها، وأمنع عن إيجاداتها وإبداعاتها، أو أفتي بحرمة تعليمها ودراستها، أو أقول: إن الاشتغال بها باطلٌ كليةً، وإنما أقصد به ما ذكرته في الخطاب بعناوين مختلفة، وهو أني أمنع عن أن تُجْعَل العلوم مقصودًا أصليًّا ومطلبًا رئيسًا، وكلُّ هذه الجهود التي تُبذَل الآن في سبيل العلوم لو كانت قد بُذِلَت في سبيل مقصودٍ حقيقيٍّ لَمَا كان جائزا فقط، بل كان مطلوبا في هذه الأيام، وذلك المقصود الحقيقي ليس هذه الدنيا المادية؛ لأنها وسيلة فقط، ولا المنافع المادية؛ لأنها أيضا وسيلة فحسب، وإنما يكون المقصود الأصلي لمسلمٍ هو الآخرة وديانته المذهبية، التي خُلِقَ الإنسان لأجلها.

فالعلوم بدون صلتها بالدين شجرة خبيثة، لا ثبات لها ولا قرار، ولكنها إذا اتصلت بالدين خادمةً له، وذريعةً للمطلوب، فهي نافعة ومفيدة، وداخلة في الكلمة الطيبة، التي أصلها ثابت وفرعها في السماء.

ولكني أحس –بالشدة– بأن الجهود التي تُبْذَل للعلوم الآن يبدو أنها تُبْذَل لشيء مقصود بالذات، ولأجل ذلك يتهافت عليها الناس، وأنا أرى أيضًا أنه لم يُجْعَلِ الدينُ معيارًا لقبولِ العلوم وردِّها، بل استُعْمِلَتِ العلومُ في كثيرٍ من الأحيان لمخالفة الدين، حتى قيل: إن العلوم زلزلت أسس الدين ودعائمه، كأن العلوم شيء مقصود بحيث لا يصلح الدينُ وسيلةً لها، فضلا عن أن يكون مقصودَها.

ومن الممكن جدا أنْ كانت هذه العلوم قد عَمِلَتْ في ديانات العالم القديمة عملاً تخريبيًّا، ولذلك قيل ما قيل، ولكني أؤكد لكم أن الدين الوحيد الذي تسير العلومُ مع كل صغيره وكبيره، هو دين الفطرة "الإسلام"، لو أراد أحد أن يرى تفصيلاته فليقرأ كتابي "تعليمات إسلام اور مسيحي اقوام" (أي التعليمات الإسلامية والأقوام المسيحية)، فإني وضحت فيه بالأدلة أن جميع إيجادات العلوم في الحقيقة هي الوجه المادي لمعنويات الإسلام، وقد جاءت الترقيات العلمية بإرادة الله التكوينية في هذا العصر لتفهيم الإسلام، ولجعلها أقرب إلى الفهم.

لذلك، فالإنسان الذي يستخدم العلوم وسيلةً للإسلام هو يُقَوّي الإسلام، والذي يجعلها مقصودة بالذات هو يوهن نفسه ويضر بها، ولا يستطيع أن ينال من الإسلام شيئا.



موضع عبرة لطلبة الجامعات العصرية:

لما ثبت أن العلوم بلا واسطة الدين "كلمة خبيثة" التي لا أساس لها، والإسلام "كلمة طيبة" التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، فهذا مقام العبرة والموعظة لأبناء المسلمين الطيبين، فلا يصرفوا أوقاتهم الثمينة في معمولات العلوم بحيث تصبح مقصودةً بالذات، ولذَّاتُها الفانية والزائلة تصير أصليةً، التي هي سبب الندامة في الآخرة، ولات ساعة مندم، ولات حين مناص. ولا يأخذ بقلوب هؤلاء الطلبة، اللمعانُ الظاهري لأولئك الأقوام الذين زادوا في لهو ولعب أهل الدنيا بمصنوعاتهم المادية اللامعة من العناصر الأربعة النار والماء والهواء والتراب؛ لأن أعمار هذه المصنوعات قصيرة جدا، وستبقى لوقت قصير.

وهذا البريق الخادع للحضارات والمدنيات القائمة على العلوم متاع قليل، وحياة الأقوام المنهمكة فيه محدودة جدا ولأيام قلائل فقط، وستأتي تلك الساعة قريبا التي تتصادم فيها الحضارات البرّاقة مع نفسها، وتقضي على محبيها بتلك المصادمات والمقارعات، قال تعالى: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ • مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران:196-197].

وهذه العناصر الأربعة أيضا آخذة بالأبصار، وساحرة لها، فالنار لامعة، صاحبة صولات وجولات، ومالكة لآثار الحرارة البعيدة. والماء فضِّيُّ المنظر صافٍ وشفَّاف، وحاملٌ لآثار التبليل المنتشرة. والهواء في الظاهر أرقُّ شيء جسما بلطافته، وموجودٌ وسارٍ في كل مكان. والكرة الأرضية من حيث المجموع تبدو أكثر عظمة ومكانة، وأوسع شيء وأكبر إلى حد النظر. ولكن هذه العناصر الأربعة بسبب أخلاقها الجبلِّية وآثارها الطبيعية محتاجةٌ وأذلُّ شيءٍ في العالَم، وما استطاع بريقُها الظاهريُّ هذا محوَ دناءَتِهَا وسِفْلِها الجوهري كما أثبتنا في السابق.

ومِثلُه بالضبط تمامًا حالُ الأقوام أو المجتمعات أو الأفراد التي غلبت عليها هذه الأخلاق المادية، بحيث أصبحت شغلَها الشاغلَ ليلَ نهارَ، هي ولو تبدو في الظاهر لامعةً مثل النار، وشفَّافةً مثل شفَّافية الماء، ومنتشرةً انتشارَ الهواء، وعظيمةً مثل عظمة الأرض، ولكنها بسبب أخلاقها المادية الراسخة فيها، لا تستطيع أن تُنقِذ نفسَها من الذلة والهوان اللذين سيأتيانها في الدنيا قبل الآخرة؛ لأن المادة التي لم يُكْتَب لها أيُّ عزٍّ، ولا أية كرامةٌ منذ خلق الفطرة، تنهدم العمارات المصنوعة منها بأسرع وقت، مهما كانت قوية شامخة ناطحة السماء.



خاتمة:

وفي ختام هذا البحث خرجنا بالنتائج التالية:

1- أن الحديث رتَّب العناصر الأربعة ترتيبا رائعا، فذكر أولا كل كثيف، ثم كل لطيف، ثم جعل كلَّ مذكورٍ مؤخرًا أشد وأقوى من المذكور مقدَّمًا.

2- وأشار الحديث إلى أن معيار الشدة والقوة هو اللطافة، وترتيبه الطبيعي أن الألطفَ من التراب الحديدُ، ومن الحديدِ النارُ، ومن النارِ الماءُ، ومن الماءِ الهواءُ، ومن الهواءِ الإنسانُ، ومن عامة الناسِ الإنسانُ تاركُ الدنيا، ومن عامة التاركين التاركُ المحضُ والزاهدُ غيرُ المرائي الذي قلبه أطهر من شواغل الدنيا، وأرفع من حب الماديات، وأنفر من الكثافات المادية

3- أن الإنسان هو محور اللطافات الروحانية، كأن لا يكون حامل اللطافة الكاملة إلا الإنسان الروحاني الرباني، الذي لا ينهمك في خدمة البدن، بل ينشغل بتكميل الروح، وتصبح الأعمال الروحانية شعارا له، بدلا من التصرفات المادية.

أما التوصيات فهي ما يأتي:

1- ضرورة الخوض في بحر السنة لاستخراج ما قعد في قاعه من دررٍ نستفيد بها في أعمالنا الدنيوية، ولألئ نثبت بها أن السنة وحي من الله خالق الكون.

2- ضرورة عدم التكرار بمسائل العقيدة، وأحكام الصلاة وغيرهما من المسائل العقيمة.



المصادر والمراجع:

1. ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي الرازي، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: أسعد محمد الطيب، (السعودية: مكتبة نزار مصطفى الباز، ط1، 1419هـ).
2. ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد البغدادي الأموي القرشي، **الزهد**، (بيروت: دار ابن كثير).
3. ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد البغدادي الأموي القرشي، **ذم الدنيا**، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم، (القاهرة: مكتبة القرآن).
4. ابن الأعرابي، أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد البصري، **المعجم**، تحقيق: أحمد ميرين سياد البلوشي، (الرياض: مكتبة الكوثر، وبيروت: دار الكتب العلمية).
5. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن بن علي، **المنتظم في التاريخ**، (بيروت: دار صادر، ط1، 1358هـ).
6. ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، **الإصابة في معرفة الصحابة**، تحقيق: علي محمد البجاوي، (بيروت: دار الجيل، ط1، 1412هـ).
7. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، **تاريخ دمشق**، (بيروت: دار الفكر، ط1، 1419هـ/1998م).
8. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، **تفسير القرآن الكريم**، تحقيق: محمود حسن، (بيروت: دار الفكر، ط1، 1414هـ/1994م).
9. ابن منده، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى، **التوحيد**، تحقيق: د. علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، (المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، ط1، 1409هـ).
10. أبو الشيخ، عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني أبو محمد، **العظمة**، تحقيق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، (الرياض: دار العاصمة، ط1، 1408هـ).
11. أبو القاسم الأصبهاني، إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي، **الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة**، تحقيق: محمد بن ربيع بن هادي عمير المدخلي، (الرياض: دار الراية، ط1، 1419هـ/1999م).
12. أبو نعيم، أحمد بن عبد الله الأصبهاني، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط4، 1405هـ).
13. أبو يعلى، أحمد بن علي بن المثنى الموصلي، **المسند**، تحقيق: حسين سليم أسد، (دمشق: دار المأمون للتراث، ط1، 1404هـ/1984م).
14. أحمد، أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، **المسند**، الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها، (القاهرة: مؤسسة قرطبة).



15. البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي، **الصحيح**، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، (بيروت: دار ابن كثير، ط3، 1407هـ/1987م).

16. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، **شعب الإيمان**، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1410هـ).

17. الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي، **السنن**، الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

18. الحاكم، محمد بن عبد الله أبو عبد الله النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، ومعه تعليقات الذهبي في التلخيص، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1411هـ/1990م).

الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، **المتفق والمفترق**، تحقيق: الدكتور محمد صادق الحامدي، (دمشق: دار القادري، ط1، 1988م).

